الفصل الثانى

صحـــوة مصـــر

obeikandl.com

١ ـ صحوة مصر

دبت الحياة فى مصر والعرب من جديد، وعاد الأمل إلى القلوب، وظهرت الحميّة. وعاد القلب يضخ الدم إلى الأطراف بعد ركود طويل. وبان للناس وللعالم أن الظاهر خادع، وأن الباطن هو الحقيقة، وأن فوق المياه الراكدة هناك المياه الجوفية التى مازالت تسرى وتتحرك.

منذ اختفاء عبد الناصر فى سبتمبر ١٩٧٠، وبعد حرب الاستنزاف فى ١٩٦٩ واستمرار روحه فى حرب اكتوبر ١٩٧٣ بعد أن أعاد بناء الجيش، وتمسك بمبادئ القضية "إزالة آثار العدوان"، ورفع شعارات "ما أخذ بالقوة لا يسترد إلابالقوة"، "لا صوت يعلو فوق صوت المعركة"، "نسالم من يسالمنا ونعادى من يعادينا"، "الضفة قبل سيناء"، رفعت شعارات أخرى تكشف عن تعب مصر وإرهاقها مثل "حرب اكتوبر آخر الحروب"، "السلام طريق الرخاء". وتحول ذلك إلى سياسات فعلية فى الانفتاح الاقتصادى، والخصخصة، واقتصاد السوق.

ارتكنت مصر إلى الجسد المرهق، وأعطت الأولوية للاقتصاد على السياسة فى آخر ربع قرن، تعيد بناء أبنيتها التحتية، المياه، والصرف الصحى، والكهرباء، وشبكة الاتصالات، والطرق، وبناء المدن الجديدة، جلبا للاستثمار. فقد أصبحت مصر آخر بلاد العرب من حيث الخدمات، وقد كانت أولها فى الاستقلال والصناعة والزراعة والتعليم والثقافة. عكفت على إبراء البدن فاعتلت الروح، واتجهت إلى الخبز فافتقدت الحرية، وانطوت على النفس فتبعثر الغير.

وكانت النتيجة أن ترهّل الجسد، وضعفت الأعضاء من قلة الحركة ودوام السكون. فليس بالخبز وحده يحيا الإنسان. وأصبح جمل الصحراء باركا لايستثيره صاحبه على النهوض لأنه فقد الرؤية باتساع الأفق، ولم ير الرّبان إلا سفينة فى بحر مترامى الاطراف. ضاع الخيال العربى لصالح حسابات السوق، وغاب الشعر العربى لصالح مساومات التجار.

البيان ١٩٩٦/٧/١

obeikandi.com

ونشأ شرخ فى جدار مصر، أعقبه شرخ آخر فى جدار العرب. ضاعت الرسالة، رسالة مصر مع نفسها، وحدتها وتواصلها عبر آلاف السنين، ورسالتها مع غيرها فى محيطها العربى. والرسالة هى الروح الذى يسرى فى بدن التاريخ، هو النبض الذى يدل على حياة الجسد. وأدى شعار "مصر أولا" إلى "مصر آخرا". وغابت القضية. وانعكس ذلك على كل مظاهر الحياة العامة فى مصر خاصة على الشباب والحياة الوطنية. وتساءل الجميع: ما القضية؟ أين القضية؟ وأصيب أصحاب القضية من الجيل السابق، جيل الأربعينات والخمسينات والستينات بالغم، وحملوا الهم، وأصيب شعراؤهم وفنانوهم بالأزمات القلبية. وماذا يفيد الجسد إذا ماضاعت الروح؟ وكيف تسير الحياة بلا قضية!

أصيبت مصر بالتفتت فى الداخل وبالعزلة فى الخارج. وتحول الشباب إلى الجنس والمخدرات منطويا على نفسه إن استعصت الهجرة إلى الخارج. وأين الهجرة بعد حرب الخليج، وحصار العراق، وتقلب ليبيا، وحرق الأتراك بألمانيا، وصعود العنصرية الغربية لتطهير أوربا من العرب وإعادتهم إلى بلادهم، تطهير الشمال من غزو الجنوب. وبدأت إسرائيل فى النيل من شباب مصر عن طريق تجارة الجنس والمخدارت وفتح أبواب الرزق لهجرات مصرية تحل محل العمالة الفلسطينية، وتتساوى مع المهاجرين الروسى والفلاشا والعمالة الآسيوية القادمة. ولجأ البعض إلى الدين وجماعات العنف يجد فيه مهربا وملاذا ليتحول من العدم إلى الوجود، ومن البطالة إلى العمل، ومن التهميش الاجتماعى إلى إمارة العالم، ومن الكفر بالمجتمع إلى الإيمان بالحاكمية. وتزداد الأمراض الاجتماعية يوما وراء يوم. غابت القضية العامة وحضرت المنافع الخاصة. فاستشرى الفساد والإثراء السريع وتهريب الأموال. واجتمعت السلطة السياسية والسلطة الاقتصادية فى الحزب الحاكم، وحوصرت النقابات، وزُيّفت الانتخابات حتى أصيب الجميع بالاحباط.

وتراكمت الديون الخارجية وأصبحت تعادل أموال مصر المهربة إلى الخارج. وقل الاستثمار العربى، وزاد الاجنبى. حرا فى التعامل، ومُعفى من الضرائب. استقرار فى الظاهر، وقلق فى الباطن، سكون على السطح وغليان فى العمق. والكل يترقب متى الانفجار، ومتى عودة الروح. ووقع الفصام بين الماضى والحاضر، وبدأت الحسرة تعم الجميع، والكل يشعر بالأسى لما حدث لجمل الصحراء ولأحفاد رمسيس، ولجنود صلاح الدين، ولخلفاء محمد على، وأجيال عبد الناصر.

وامتهنت كرامة مصر والعرب: ضرب المفاعل النووى فى العراق، غزو جنوب لبنان وحصار بيروت، خطف الطائرة المصرية، ضرب مركز المقاومة الفلسطينية فى تونس، اغتيال أبو جهاد، حصار العراق وتجويع شعبه، حصار ليبيا بمجرد الشبهات، حصار السودان، تهديد إيران، الحلف الإسرائيلى التركى، ومذبحة قانا، والقائمة تطول.

ومع امتهان الكرامة جاء ارتهان الارادة، وعجز مصر عن التململ أو المعارضة أو الوقوف فى مواجهة الضغوط الخارجية من البنك الدولى وصندوق النقد. يشهر باستمرار فى وجهها سلاح القمح والتجويع من أجل مزيد من التركيع. كان المقصود إجهاض روح مصر فى الداخل وعزلها عن محيطها العربى فى الخارج، تفتيتها فى الداخل وتذويبها فى الخارج، جف منابعها فى الداخل حتى يقف الضخ فى الخارج.

وجاءت صحوة مصر بفضل التحدى الخارجى وتعاظم الخطر على الأرض والسلام معا. حتى الكثير الذى تنازل عنه العرب والقليل الذى أخذوه لم يعد مقبولاً. ليست الأرض فى مقابل السلام بل الأمن فى مقابل السلام، فيخسر العرب، وتحصل إسرائيل على كل شئ. واستُنهضت مصر الراقدة، ودبت الحياة فيها، وتسارع النبض حتى فاقت وجمعت من حولها، تبحث عن نفسها ويجدها الآخرون.

عاد الأطراف إلى القلب، فى تآزر حركى طبيعـى، وتـآلف الأجزاء فـى كـل واحد، فى مصالحة تاريخية بعد خصومات وقتيـة صغيرة محدودة الأفق. فـالخطر الأقل يتوارى أمام الخطر الأعظم. وما أسرع التآلف والصب فـى تيـار أدنـى، الحـد الأدنى من الحق العربى، والكرامة العربية، والصمود العربـى. وبـدلا مـن السـخرية بأن العرب اتفقوا على ألا يتفقوا، اتفق العـرب علـى أن يتفقـوا. ففلسـطين أمانـة فـى عنق التاريخ. والقدس أمانة فى عنق العرب.

آثرت مصر العودة إلى مكانها الطبيعـى، مركـز الثقـل للعـرب، وأن لا بديـل عن الخارج فى الداخل، ولا حليف خـارجى، أمريكـى إسـرائيلى، بديـل عـن حليـف عربى حتى ولو كان ذلك السودان أو العراق. فالتناقض الجزئـى للأنظمـة السياسـية يتوارى أمام التناقض الكلى فى الوجود والمصير. ونبـض فـى قلـوب السـامعين مـن جديد بعض الأغانى الوطنية فى السـتينات ذكـرت العـرب بمـاضيهم القريـب عندمـا كانوا يملؤون الدنيا تحررا ووحدة وتنمية. واحتجت إسرائيل على مجرد إذاعة نشـيد "وطنى حبيبى الوطن الأكبر". واعتبرتـه مـن تـراث الحـروب بعـد أن تعـودت علـى التعامل مع الأوطان الصغرى، تلتهم الواحد تلو الآخر، ولم يبق إلا سوريا ولبنان.

وتمسكت مصـر باستقلالها الوطنى، وحقها فـى الدفـاع عـن نفسـها وبجوارهـا ترسانة من الأسلحة النووية وأسلحة الدمـار الشـامل والصواريـخ المتعـددة الـرؤوس والأحلاف العسكرية الجديدة لحصـار العـالم العربـى مـن الشـمال بعـد حصـاره مـن الشرق بحصار العراق، وحصاره من الغرب بحصار ليبيا، وحصـاره مـن الجنـوب بحصـار السودان. ورفضت أن تبيع تاريخها، وأن تتنـازل عـن دورهـا مقايضـة مـع مناطق حرة واستثمار مشـترك مـع إسرائيل. فقد تعودت إسـرائيل علـى الصفقـات الفردية. وتناول العرب الطعم حتى نسد الحلق.

أن صحوة مصر قادرة على أن تعيد للوطـن العربـى اسـتقلاله ووحدتـه، وأن تعيد إليه قطبه المستقل ليكون القطب الثانى فى عـالم أحـادى القطـب أو هكـذا ظـن. وفى الوقت الذى تعود فيه روسيا بحلف مشترك مع الصين حتى ينشأ قطب ثان فـى

مواجهة القطب الأول تعود مصر فى قلب الوطن العربى حتى تتعدد الأقطاب، وينتهى هذا الماضى القريب عندما استأسد بالعالم قطب واحد.

وسيظل التركيز على المنطقة العربية بالإجهاض من الداخل والحصار من الخارج حتى تصبح إسرائيل المتحدث الأول فيها، وترث القومية العربية، وتعيد إحياء الأحلاف مع تركيا لخلق دولة كبرى فى المنطقة تستولى على ما تبقى من الخلافة العثمانية تحت اسم جديد، الحلف الأمريكى الإسرائيلى التركى. ولكن صحوة مصر قادرة على أن تعيد الموازين، وتقلب المخططات كما فعلته من قبل فى العهد الناصرى المجيد، وإسقاط حلف بغداد والحلف الإسلامى.

إن صحوة مصر كما بدت فى مؤتمر القاهرة وفى التعامل مع أمريكا وإسرائيل بعده ليست صحوة مؤقتة هذه المرة بل صحوة دائمة. فمصر عائدة بعد أن كانت ذاهبة، قادمة بعد أن كانت مولية. وكما جمعت صحوة مصر العرب فإنها قادرة أيضاً على أن تجمع المصريين بداية بالدفاع عن حرية الصحافة وانتصار نقابة الصحفيين. إن مصالحة مصر مع نفسها تسبق مصالحتها مع الغير. وتتعكس الصحوة فى الداخل عن طريق الحوار الوطنى بين مختلف القوى السياسية والتيارات الفكرية فى البلاد، وتكوين الجبهة الوطنية المتحدة. الحرية للجميع، والحوار الديموقراطى هو القادر على تجنيد الناس وتوحيد القوى بلا استبعاد أو استقصاء. ولأول مرة فى تاريخ مصر الحديث ومنذ حرب اكتوبر ١٩٧٣ تقف المعارضة فى صف واحد مع الدولة تشد أزرها فى صحوتها لتجميع العرب.

وهنا يأتى الدور الايجابى للحركة الإسلامية التى تعتبر أزهى نقطة فى تاريخ نضال العرب الحديث فى جنوب لبنان وفى فلسطين. فالحركة الإسلامية ليست كلها شراً. وإن لم تستطع أجهزة الأمن القضاء عليها فى الداخل فإن الدولة قادرة على الدخول فى مصالحة تاريخية معها لمواجهة الأخطار فى الخارج. الحركة الإسلامية حاليا فى السبعينات والثمانينات استمرار للحركة الوطنية فى الخمسينات والستينات بعد أن توقفت وربما انتكصت وتراجعت.

إن صحوة مصر كانت منتظرة. إنما الذى غاب هو عود الثقاب الذى يشعلها. المهم أن تتعلم مصر الدرس القريب من أجل الرؤية البعيدة. فقد خسرت مصر والعرب منذ حرب اكتوبر ١٩٧٣ حتى الآن من الثروة والكرامة ما كانت قد كسبته من قبل. وابتلعت حرب الخليج الثانية ما تبقى من ثروة العرب وكرامتهم.

لقد كشف اليمين الإسرائيلى قولاً وفعلا ما مارسه اليسار الإسرائيلى فعلا لا قولاً، وكما بدا ذلك فى مذبحة قانا. وعبر عن لاءاته الثلاث: لا للانسحاب من الأرض، ولا للانسحاب من القدس، ولا لتجميد المستوطنات. تستثير لاءات العرب الأولى: لا صلح ولا مفاوضة ولا اعتراف. ويعود الأمر كله إلى مرحلة الصفر.

لقد صحت أم الدنيا، مصر المحروسة، مصر المحمية. فجندها خير أجناد الأرض، وشعبها مرابط إلى يوم القيامة. لقد بدأت مصر نهضتها منذ القرن الماضى وشاخت فى نهاية هذا القرن. وتصحو من جديد على مشارف القرن القادم فى دورة أبدية بين الغيبة والحضور. حينئذ، قد لا تكون حرب اكتوبر فقط آخر الحروب بل قد تكون أيضاً أول الانتصارات.

obeikandi.com

٢ ـ مركزية مصر

انعقد مؤتمر القاهرة الاقتصادى الأخير بعد تردد مصر كنوع من الضغط على إسرائيل للاستمرار فى عملية السلام والالتزام بما تم الاتفاق عليه من أوسلو ومدريد والقاهرة. فالاتفاقات بين الدول وليس بين النظم السياسية،وبين حكومات شرعية وليست بين أحزاب، تتغير بتغيرها. ثم رأت مصر لأسباب خارجية وداخلية، دولية ومحلية عقده من أجل حصار إسرائيل سياسيا بعد أن تحول الرأى العالمى ضدها، المجموعة الأوربية، وروسيا الراعى الثانى، وقطاع كبير من الرأى العام الامريكى على غير ما يبدو، عام انتخابات الرياسة واستجداء أصوات اليهود والمزايدة عليها من المرشحين الجمهورى والديموقراطى.

لقد تعلمت مصر من المؤتمرين السابقين فى الدار البيضاء وعمان حيث حاولت إسرائيل أن تكون مركز التنمية الجديد فى الشرق الأوسط. فالبنك المركزى للاستثمار فيها. والأموال الأجنبية خاصة الأمريكية والأموال العربية تنهمر عليها. والتخطيط الاقتصادى وعقود الشركات يتم أيضاً فيها. فقد بقى العرب منذ تأسيس الجامعة العربية لا يزيد حجم التبادل بينهم على ٥ ٪ من مجموع التجارة الخارجية العربية. وهاهى إسرائيل تحقق مالم يحققه العرب، فى جذب رؤوس الأموال الأجنبية والعربية إلى المنطقة والمساهمة فى تحقيق السوق العربية المشتركة عبرها، وهو مالم يحققه العرب بأنفسهم طوال نصف قرن.

وإذا كانت مصر قد تم تهميشها سياسياً لحساب الولايات المتحدة وأوربا فإنه أيضاً يمكن تهميشها اقتصاديا فى الدار البيضاء وعمان تحقيقا لنبوءة كسنجر عندما عاتبته جولدا مايير أنه لايقدم لإسرائيل، وهو اليهودى، مثل ما يقدمه لمصر ولصديقه السادات، وحين قال "أنت لا تعلمين يا سيدتى مدى الخدمة التى أسديتها لإسرائيل: لقد أخرجت مصر من المعركة".

البيان ١٩٩٦/١١/٢٥.

واستيقظت مصر فى المؤتمر الاقتصادى فى القاهرة. وأرادت إدارة الدفة من مركزية إسرائيل إلى مركزية مصر، من الدار البيضاء وعمان إلى القاهرة لتحقيق هدفين: الأول كشف إسرائيل أمام العالم بأنها تريد الاقتصاد دون السياسة، والتعاون الاقتصادى قبل تحقيق السلام والانسحاب من الأراضى العربية المحتلة فى سوريا ولبنان وفلسطين، محققة بذلك هدف سوريا ولبنان من مقاطعة المؤتمر الاقتصادى بالقاهرة. والثانى جذب الاستثمار ورؤوس الأموال الأجنبية إلى مصر، وبيان نجاح إجراءات الإصلاح الاقتصادى وإمكانية الاستثمار المشترك فى مصر حيث الضمانات الكافية والتسهيلات المقدمة بالنسبة لامتلاك الأراضى والإعفاء من الضرائب، ومساهمة من مصر فى إيجاد فرص للعمالة المصرية فى الداخل بعد أن تعثر سوق العمالة فى الخارج فى الخليج والعراق وليبيا والاردن، وانغلاق شبه كلى للعمالة المصرية خارج المنطقة العربية أمام العمالة المغاربية والأسيوية والأفريقية.

وقد قدمت مصر مئات المشروعات، ونجحت فى عقد أول صفقة لمد أنابيب الغاز مع تركيا، وقدمت مشروع الدلتا الجديدة فى جنوب الوادى فى الصحراء الغربية لخلق واد جديد مواز للوادى القديم وربط الواحات الخمس بعد سريان الماء فى مفيض توشكا. فلا حل أمام الانفجار السكانى فى مصر إلا الاندفاع نحو الصحراء الغربية فى وادى الواحات الجديد، والصحراء الشرقية لربط البحر الأحمر بالوادى القديم، ونحو سيناء بمد مياه النيل إليه فى الشمال والجنوب حتى لا تكون سيناء فقط مقبرة للغزاة من الشمال الشرقى منذ الهكسوس حتى إسرائيل بل تجمعا سكانيا جديداً، يد تزرع ويد تحمل السلاح. موشاف فى النقب فى مواجهة مصر، ومزارع جماعية يقوم بها فلاحو مصر من جيش مصر فى مواجهة النقب.

وتم حصار إسرائيل سياسيا. فلا أحد من ممثلى الدول يرى أن الاقتصاد يأتى قبل السياسة ومنفصلا عنها. فرأس المال لا يأتى والحرب على الأبواب. والبناء لا يتم والهدم والدمار قادم. وقد لاقت كلمة ممثل المجموعة الأوربية وممثل

فلسطين إجماع الجميع على أنه لا تنمية اقتصادية قبل تحقيق السلام. وحوصرت إسرائيل اقتصاديا حتى من داخلها. فرأس المال الإسرائيلى يريد الربح، واليمين الإسرائيلى يريد الأرض ولو بالحرب. فشب الصراع بين رجال الاقتصاد ورجال السياسة، بين يهود المعبد الذين حولوا معبد الرب إلى سوق كما يقول السيد المسيح وبين يهود الاستيطان.

وتم حصار إسرائيل عربيا ودوليا. فالوفود العربية لا تتحمس لملاقاة الوفد الإسرائيلى، وتدير الظهور له. والوفود الأوربية تربط بين السلام والتنمية، بين السياسة والاقتصاد. بانت إسرائيل مرهونة لليمين والتطرف والحرب. وعمت الشائعات بانسحاب وفد إسرائيل ووزير خارجيتها بعد أن كان مترددا من قبل فى الحضور. فليس لديه ما يقال أو ما يقدم. والعالم يتغير إلا فى إسرائيل. والعنصرية تنتهى من جنوب افريقيا إلا فى إسرائيل. والعالم قرية واحدة إلا فى إسرائيل، قريتها العالم، والعالم قريتها.

وظهر تهافت المشاريع البديلة عن القومية العربية والوحدة العربية أو التضامن العربى واللجان العربية المشتركة بين الحد الأقصى والحد الأدنى، مشاريع الشرق أوسطية وإسرائيل مركزها، والمتوسطية وأوربا مركزها. فالشرق أوسطية الهدف منها هو إدخال إسرائيل فى المنطقة كمركز له وأداة لتحديثه لنهبه والاستيلاء على ثروته وأسواقه ثم عقله وقلبه وصهينته باسم الاقتصاد، والجسد الضعيف. وهل لا يستطيع العرب التعاون بينهم دون مركزية إسرائيل؟ ألا يستطيع العرب التجارة والتنمية فيما بينهم دون المرور بالمركز الجديد؟ وهل يمكن اختفاء ألفاظ العرب وتعبيرات الوطن العربى، العالم العربى، المنطقة العربية، الأمة العربية، القومية العربية، الوحدة العربية لحساب ألفاظ أخرى مثل الشرق الأوسط وكأن قيمة العرب هى أنهم وسط بين الشرق والغرب يتنازعان عليه كما كان الحال أيام الاستقطاب الثنائى والحرب الباردة؟ هل الشرق الأدنى، هذا المفهوم الاستعمارى البريطانى، أدنى بالنسبة إلى بريطانيا، والشرق الأقصى، هذا المفهوم الاستعمارى الآخر، أقصى بالنسبة إلى بريطانيا مازالا بديلين عن الأمة العربية التى تقيس مسافة وجودها بذاتها وليس ببعدها وقربها عن غيرها؟

ولا يختلف مفهوم المتوسطية عن الشرق أوسطية الا بتوسيع دائرة المركز الجديد من إسرائيل إلى الغرب إلى العالم العربى كهامش للمركزين فى ثلاث دوائر متداخلة، إسرائيل والبحر الابيض المتوسط ثم العرب فى مقابل الدوائر الثلاث فى حلم الستينات أثناء الناصرية: مصر، والعالم العربى، والعالم الافريقى الآسيوى. ومن وراء إسرائيل والغرب السوق العالمية. فيتم تهميش العرب بما فى ذلك مصر اكتفاء بدورها المتوسطى. ويااليت المتوسطية تعنى حوار الشمال والجنوب، شمال البحر الأبيض الأوربى وجنوبه الأفريقى أو المشرق العربى فى آسيا والمغرب العربى فى أفريقيا. بل تعنى سيادة إسرائيل على المتوسط. فهي الدولة النموذج فى المدنية والتحديث. أقامها الغرب ورعتها أمريكا. ومازالت حلم هرتزل فى أن تصبح قلعة غربية متقدمة وسط العالم العربى. وحلم بريطانيا العظمى فى فصل المشرق العربى عن مغربه، وعزل صحراء الشام عن صحراء سيناء، وتهديد حدود مصر الشرقية كما حاصرها الغرب من حدودها الشمالية، ويهددها من حدودها الجنوبية فى مياه النيل ومنبعه فى الحبشة.

لقد بدأت الأمور تعود إلى نصابها فى مؤتمر القاهرة الاقتصادى، بعودة مصر إلى مركزيتها، وإمكانية العرب التعامل مباشرة مع بعضهم البعض دون المرور بإسرائيل التى مازالت تعتبر الوطن العربى مجالها الحيوى. أعطاها الله الأرض والشعب والمدينة والمعبد والنصر والغنم تحقيقا للوعد والعهد والميثاق. وطالما أن إسرائيل بؤرة للعدوان والتوسع فإنها ستظل هامشية فى الوطن العربى مستبعدة منه، ملفوظة من وجدانه.

أرادت إسرائيل أن تكون وسيطا بين العرب والعرب وكأن العرب فى حاجة إلى وساطة بينهم. وأرادت أن تكون عميلا للبعض على حساب البعض الآخر، تأييداً سياسيا له وتقوية لنظامه فى مقابل الاستثمارات المشتركة. وأرادت أن تكون وسيطاً وعميلاً للغرب، وجسراً له إلى العرب، ثروة وأسواقا، وعقلا ووجدانا، كما تفعل إسرائيل ذلك فى السياحة، زيارة مصر عبر إسرائيل، ومشاهدة سيناء بعد

النقب. فتتاجر بآثارنا، وتتاجر بثرواتنا وأسواقنا. ولها العمولة. فالتجارة شطارة. ولا أشطر من اليهود عبر التاريخ فى الصفقات حتى ولو كانت مقايضة اللحم البشرى بالمال كما فعل شيلوك، وكما صور شكسبير فى "تاجر البندقية". وبدل أن تكون إسرائيل عميلا لنفسها تصبح عميلا لغيرها. فالغير موجود لها لأنه ليس عليها فى الأميين سبيل.

وقد يكون مؤتمر القاهرة الاقتصادى بداية لاكتشاف العرب لأنفسهم كما استردت مصر مركزيتها. إذ يمكن إحياء السوق العربية المشتركة وتنشيطها من خلال تنشيط مؤسسات الجامعة العربية وأجهزتها. ففى سكونها تنشط إسرائيل، وتقوم بدورها فى إيجاد الترابط بين العرب. والحرص على المركز فى مصر خير من التفريط فيه. كما حرصت مصر على ذلك برفضها الذهاب إلى مؤتمر وشنجطن الأخير حتى لا تتخلى عن دورها السياسى لأمريكا، القوة الأعظم. مما أعطاها دفعا لعدم التخلى عن دورها الاقتصادى لإسرائيل، القوة الأصغر. زحزحة مركزية مصر إلى مركزية إسرائيل فيه تهميش للعرب والمساومة على السياسة بالاقتصاد، وعلى العقول بالمال، وعلى الوجود بالوعود.

لقد استطاع مؤتمر القاهرة الاقتصادى إعطاء دفعة جديدة لإيقاف التطبيع، والهرولة إلى إسرائيل. فبعد أن حصلت إسرائيل على الاعتراف السياسى بها إثر معاهدات السلام بينها وبين مصر والأردن كانت فى سبيل الحصول على الاعتراف الاقتصادى فى بعض أقطار المغرب والخليج. وكما حدث الإجماع العربى فى حده الأدنى فى مؤتمر القمة العربى الأخير فى القاهرة حدث الإجماع الاقتصادى فى حده الأدنى، لا اقتصاد قبل السياسة، ولا تعاون قبل السلام، فى مؤتمر القاهرة الاقتصادى.

وبرزت فلسطين على لسان وزير التنمية والتجارة الخارجية وهو يشرح معاناة شعب فلسطين الاقتصادية تحت الحصار والتجويع لتفريغ الضفة الغربية من شبابها العاطل واستبدال العمالة الآسيوية وربما العربية، خاصة المصرية به. وكيف

يتم التعاون الاقتصادى بالكلام وحصار شعب فلسطين اقتصاديا بالأفعال؟ ألا يكفى لشعب فلسطين مأساته أنه لا يستطيع أن يعيش إلا بفتح حدوده الاقتصادية والبشرية مع إسرائيل، فيصبح هامشا للمركز أكثر منه جزءًا من الأمة العربية واقتصادها، وفتح حدود فلسطين مع مصر فى الجنوب والاردن والعراق فى الشرق وسوريا ولبنان فى الشمال أرضا وأوربا فى الغرب بحراً؟ وكيف يمكن المطالبة بالدولة الفلسطينية المستقلة إن كان اقتصادها مرتبطا بإسرائيل إلى حد الاختناق إذا ما أغلقت الحدود معها؟ إن المسؤولية ليست على عاتق إسرائيل بل على عاتق العرب بترك الدولة الوليدة تفقد استقلالها السياسى بتبعيتها الاقتصادية لإسرائيل. ولولا أموال الفلسطينيين فى الشتات وتحويلها إلى الداخل لزاد الاختناق إلى حشرجة الموت.

لقد لوّحت إسرائيل بالحرب أخيراً ضد لبنان فى الجنوب وضد سوريا لإخراج نفسها من عزلتها فى الداخل مع نصف شعب إسرائيل الذى يريد السلام بدلا من الحرب، وفى الخارج مع أوربا وروسيا ونصف المجتمع الامريكى الذى سئم من مطالب إسرائيل الاقتصادية وتحميلها على الخزانة الامريكية ودافعى الضرائب. تريد إسرائيل بالحرب خلق واقع جديد يمكن التفاوض عليه سنوات وسنوات، إيقاف القتال ونسيان الانسحاب من الخليل وباقى أراضى الضفة الغربية وجنوب لبنان والجولان والمفاوضات حول الحل النهائى ومستقبل الأراضى والقدس.

ولكن تصريحات مصر بالوقوف إلى جانب سوريا جعلت هذا الخيار الإسرائيلى صعب التحقيق. إذ ترتكب إسرائيل غلطة العمر بالتحول عن طريق السلام الهش إلى الحرب الساخنة حيث الخراب والدمار فى منطقة مملوءة بالصواريخ بعيدة المدى وبأسلحة الدمار الشامل التى لا تعرف الحدود والمسافات الصغيرة. فمدن إسرائيل كلها تقع على مدى الصواريخ العربية كوقوع المدن العربية على مرمى الصواريخ الإسرائيلية. والاشعاع النووى والغاز والكيماويات يطول الجميع بتحرك الهواء بضعة كيلو مترات.

كما لوحت إسرائيل بحكومة وحدة وطنية مع حزب العمل من أجل إيقاف المد اليمينى الذى خلقته وإرهاب المستوطين الفلسطينيين بالسلاح. وهو أيضاً احتمال بعيد للخلاف بين نهجين وتصورين لعملية السلام.

لم يبق لإسرائيل إلا الانتحار داخليا وخارجيا. تقتل نفسها بنفسها. وتهدم المعبد على كل من فيه كما فعل شمشون وكما وصف القرآن بأنهم يدمرون حصونهم بأيديهم بعد ما ظنوا أنها مانعتهم من الموت. هكذا تتبأ بعض أنبيائها، تدمير الدولة لأنها قتلت الأنبياء، وعصت التوراة، وخرقت العهد والميثاق.

هذا ليس إغراقا فى التفاؤل العربى. إنما هو إحساس بالتاريخ، واستثمار للرصيد العربى من أجل حسن قيادة المعركة واستئناف النضال السياسى. والسياسة أيضا هى فى الحرب. وهى القدرة على الرؤية لمسار التاريخ.

ouefkandil.com

٣ ـ الحالة الدينية فى مصر (١)

صدر منذ عدة أشهر "تقرير الحالة الدينية فى مصر" عن مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام أسوة بالتقرير الاستراتيجى العربى الذى يصدر سنويا عن نفس المركز. هذا التقرير الجديد يركز على أحد أقسام التقرير القديم، الحركات الإسلامية وعلاقتها بالدولة وبالحياة السياسية العامة. فالتقرير الجديد تكبير لأحد أجزاء التقرير القديم وتسليط مزيد من الأوضاع على الحالة الدينية فى مصر.

وقد قام بإعداد التقرير جيل جديد من الباحثين الشبان المتخصصين فى العلوم السياسية بإشراف جيل متوسط وبإشراف عام للرعيل الأول. ويدل ذلك على تواصل الأجيال فى ميدان البحث العلمى، والقدرة على التواصل والاستمرار بجدية وعلم ومثابرة. يقدمون كل فترة اختراقا جديداً فى أحد الميادين من أجل تأسيس المجتمع وترشيده على العلم الدقيق فى عالم يعلم كل شئ ويجمع كل شئ، وتصدر فيه القرارات بعد دراسة شاملة ومعرفة دقيقة، دون ارتجال أو بناء على أهواء وأمزجة شخصية للقادة والزعماء.

وهذا العرض النقدى للتقرير من أجل تحسينه وإكماله فى التقارير السنوية العادية مع احترام كامل لكافة الانتماءات السياسية للباحثين، ومع تقدير عظيم لحرية الفكر للعالم والمواطن الذى يجمع بين هموم الفكر وهموم الوطن. وقد تم عرض هذه الملاحظات النقدية فى لقاء موسع تم فى الإسكندرية بين الباحثين وبعض المتخصصين من أجل مناقشة علنية للتقرير بعد أن تعرضت إليه الصحف بالتحية أحيانا وبالنقد أحيانا أخرى.

وقد صدرت منه حتى الآن ثلاث طبعات فى غضون شهرين، وتعد الطبعة الرابعة الآن، مما يدل على الاهتمام الواسع به، ورغبة الجمهور فى معرفة "الحالة الدينية فى مصر"، بعد أن أصبح الدين على المستويين المحلى والعالمى محور اهتمام رئيسى يحرك الجماهير، ويحدد سياسات الدول، ويدخل ضمن محددات العلاقات الدولية.

البيان ١٩٩٧/١/٦

وأول ما يسترعى الانتباه هو العنوان "الحالة الدينية" وكأن هناك حالة دينية مستقلة عن الحالة السياسية والاجتماعية والاقتصادية، خاصة وأننا نعيش فى مجتمع لا يفرق بين الدين والحياة، بين الآخرة والدنيا. فاستقطاب الدين فى العنوان انحياز للمفهوم الغربى الذى يفصل بين الدين والدنيا، ويعتبر الدين حالة فردية، علاقة خاصة بين الإنسان والله، طبقا لتجربة الغرب الحديث فى الفصل بين الدين والدولة منذ بدايات عصوره الحديثة.

ويزداد الأمر صعوبة فى سياق دولى عام ورؤية غربية للصراع العربى الإسرائيلى على أنه صراع دينى، ورؤية لأحد مشكلات مصر بأنها صراع طائفى، وربما تصور عام للمنطقة العربية وما بها من ملل وأعراق، وطوائف وديانات فى العراق وسوريا ولبنان ومصر والمغرب العربى والسودان ومن ثم يصبح لإسرائيل شرعية وجود دينى. فهى دولة لليهود كما أن هناك دولا للمسلمين، سنة وشيعة، وللأكراد وللدروز، وللعرب وللبربر، وللعلويين وللأباضية، وللشافعية وللزيدية.

ويزداد الأمر تعقيداً بدخول الدين فى العلاقات الدولية، واعتبار الارهاب الدينى هو الخطر الأول فى العالم، وكما ظهر ذلك فى مؤتمر شرم الشيخ الأخير، وتهديد إيران والسودان، والتخوف من تركيا، وصمود المقاومة الإسلامية المتنامى فى فلسطين وجنوب لبنان، وما يدور من مآسى فى الجزائر وأفغانستان.

فالحالة الدينية فى الحقيقة هى جزء من حالة أعم، وهى الأوضاع السياسية والاجتماعية والا قتصادية. بل إنها تعبير عنها وأداة لتغييرها كما هو الحال فى الحركات الإسلامية المعاصرة. الحالة الدينية مرتبطة بحالات الفقر والقهر والضياع والتهميش والتبعية العامة التى يشعر بها الشباب، وليس حالة مستقلة عن الإيمان أوالتدين أوالشعائر والعبادات. الحالة الدينية هى حالة الوطن.

ويقسم التقرير الحالة الدينية إلى أربعة أقسام: المؤسسات الدينية الرسمية، الحركات الدينية غير الرسمية، العمل الأهلى التطوعى، العلاقات والتفاعلات. وهى

قسمة أقرب إلى العلوم السياسية منها إلى التعبير عن الحالة الدينية. هـى أقـرب إلـى الأوضاع أو النظم أو الحركات أو الجماعات والجمعيات.

الحالة الدينية أقرب إلى الحالة النفسية التـى تسـتدعى قيـاس الاتجاهـات. هـى أقرب إلى معرفة الدين باعتباره تجارب شعورية للأفراد والجماعات وممارسات فى الحياة اليومية. ويمكن أن تقسم من خلال علوم انسانية أخرى مثل علم النفس الدينـى أو علم الاجتماع الدينى إلى أفكار وسلوك واتجاهات وممارسات عملية. ويمكن أن تنقسم إلى تيارات فكرية وتنظيمات سياسية وحركات تاريخيـة وجماعـات معارضـة كما هو الحال فى العديد من الدراسات حول الإسلام السياسى.

ويمكن أيضاً دراسـة الحالـة الدينيـة عـن طريـق تحليـل توظيـف الديـن كـأداة للضبط الاجتماعى كما تفعل النظم السياسية أو كأداة للحـراك الاجتمـاعى كمـا تفعـل الحركات الإسلامية المعاصرة، واستعمال كل فريق تأويلـه الخـاص. تسـتعمل النظـم السياسـية تـراث السـلطة. كمـا تعتمـد الحركـات الإسـلامية علـى تـراث المعارضـة. ويمكن تحليل شعارات كل فريق، السلام والأمن والتسـامح ونبـذ العنـف والتطـرف، وعدم الإكراه لفريـق، والحاكميـة وتطبيـق الشـريعة الإسـلامية، والإسـلام هـو الحـل لفريق آخر.

المؤسسـات الدينيـة ووصـف هيـا كلهـا وأنظمتهـا وأبنيتهـا وهيآتهـا وموظفيهـا تصور غربى للدين. والإسلام لا كهنـوت فيـه. وصـورة المؤسسـات الدينيـة صـورة سلبية فى أذهان الناس نظراً لتبعيتهـا للنظـم السياسـية وكمـا تـدل علـى ذلـك الامثـال العامية "خـذ مـن كـلام الشـيخ ولا تـأخذ مـن أفعالـه". لذلـك كـثر تحليـل تصريحـات المسؤولين، شيخ الأزهر أو المفتى، وكثر اسـتعمال النشـرات الإعلاميـة للمؤسسـات الدينية وكتب العلاقات العامة التى تعرّف بها.

لذلك غلب على التقرير التصور الادارى التنظيمى الهيكلـى الصـورى للحالـة الدينية فى مصر التى تتطلب تحليلاً حيا لتجارب حية فى الشعور وفى العمق. وكان القسم الأول عن المؤسسات الدينية الرسمية أكبر الأقسام، أكثر من ثلث التقرير كله.

ووردت تفصيلات عن الهيكل التنظيمي لوزارة الأوقاف وهيئات الأزهر، وأسماء مشايخه ومذاهبهم الفقهية وأسماء البطاركة والكنائس، واجتماعات البابوات ومحاضرها وأسماء أعضاء المجلس الانجليي، وأسماء الأديرة والكنائس داخل مصر وخارجها ونظام الرهبنة والتكريس والتفرغ في الكنائس، وقوانين إشهار الجمعيات الدينية وأنواعها، وأسماء الطرق الصوفية، ونوادى أعضاء هيئة التدريس، وتفصيل عن طريقة الحامدية الشاذلية.

وغاب الإشكال أو الهدف من التقرير. هل المقصود إعطاء أكبر قدر ممكن من المعلومات عن الحالة الدينية فى مصر فى الداخل والخارج لمزيد من المعرفة. أم أن المقصود هو زيادة وعى الناس بالأحوال السياسية والاجتماعية والاقتصادية التى تفرز الحالة الدينية؟

هل المقصود هو تغيير الوضع القائم، والمساهمة فى حل الصراع بين النظم السياسية والحركات الإسلامية؟ هل المقصود هو التخفيف من حدة الدجماطيقية والشعائرية التى تسيطر على الممارسات الدينية للجماعات الإسلامية؟ هل الغاية تجاوز الحالة الطائفية وبيان وحدة الشعب المصرى بهذا التجاور والتوازى بين الخطاب الإسلامى والخطاب القبطى؟ هل الغاية بيان أن الدين يمكن أن يكون أداة للثبات الاجتماعى وأن يكون أداة للحركة الاجتماعية؟ هل الغاية بيان أن هناك تيارين فى فهم كل دين، تيار محافظ وتيارى ليبرالى، تيار سلفى وتيار تقدمى؟

غاب الخيط الذى يربط بين أجزاء التقرير الأربعة، وصب المعلومات كلها نحو غاية واحدة حتى يستطيع الناس فى النهاية الإجابة على سؤال: ما هى الحالة الدينية فى مصر؟ من أين أتت وإلى أين تنتهى؟

والصعوبة الأكثر فى المنهج الذى تأرجح بين التاريخ والوصف والتحليل وتقديم المفاهيم الجديدة والسجال مع الحركات الإسلامية وأخذ موقف مناهض لها.

غلب منهج التاريخ الذى يؤرخ لكل هيئة ومؤسسة إسلامية أو مسيحية، نشأتها وتطورها وحالتها الراهنة. كما ساد منهج التحليل والتقسيم والتفريع حتى اضطربت التقسيمات وتداخل الأساس منها مع الفرعى. وبرز بين الحين والآخر منهج التنظير وتقديم المفاهيم الجديدة دون شرح أو تفصيل.

ولكن الذى غلب هو منهج السجال مع الإخوان المسلمين منذ نشأتهم وحتى روافدهم فى الجماعات الإسلامية المعاصرة، واتهامهم فكرا وتنظيما وهو ما يخرج عادة التقرير الموضوعى المحايد.

فالخطاب الإسلامى عند الاخوان عام فضفاض. يتسم بالشمول والعمومية. والحقيقة أنها سمة الخطاب الأيديولوجى بوجه عام وليس الإسلامى وحده. فالإسلام تصور عام شامل للحياة والكون. أما الغموض فطبيعى لأن التفسير الشامل لا يوضح الجزئيات، ولا يجيب على كل الأسئلة التفصيلية. المبدأ العام بطبيعته يحتاج إلى تفصيل متروك للزمن ولمقتضيات كل عصر .

وهو خطاب مزدوج ينقده التقرير، ويتناقض مع الممارسات السياسية. وهذه أيضاً من سمات الخطاب السياسى خاصة لو كان دينيا لأن الاشتباه جزء من تكوين الخطاب حتى يتفق مع كل عصر. ووظيفة التفسير أو التأويل أو الاجتهاد هو بيان المجمل، وإحكام المتشابه، وتقييد المطلق. بالإضافة إلى أن الممارسة السياسية مشروطة بظروفها. وعادة ما تتراوح بين الشدة واللين، بين الثورة والإصلاح، بين الأفغانى ومحمد عبده، بين عبد الناصر ومبارك، طبقا لتقدير الموقف.

والخطاب الإسلامى له مفاهيمه الخاصة التى ورثها من القدماء. لذلك لزم عليه تجديدها وفهمها بإعطاء معنى جديد للفظ القديم وليس بالضرورة عن طريق استبدال لفظ جديد به. فالشورى لفظ قديم وتعنى بوجه عام الديمقراطية بالمعنى الحديث لأنها ضد الاستبداد بالرأى بصرف النظر عن أشكالها، أغلبية ضد أقلية، ملزمة أو غير ملزمة. ويطالب التقرير الخطاب الإسلامى بترك لفظ الشورى كلية وإحلال لفظ الديموقراطية بدلا عنه.

ولا يوجد أساس فلسفى واحد للحرية. فهى فى الإسلام تعبير عن الشهادة "لا إله إلا الله" ونتيجة لها وليس بالضرورة حرية فردية نسبية كما هو الحال فى الليبرالية الغربية.

وبالرغم من أهميتها فهى ليست المقياس الوحيد للحكم على صحة مذهب سياسى أو خطئه. فهناك معايير أخرى مثل العدالة الاجتماعية ومقاومة الاستعمار والصهيونية والتبعية والتجزئة والتخلف واللامبالاة. الحرية والعدالة الاجتماعية واجهتان لقضية واحدة.

وأحادية الطرف فى الفهم والتفسير ليست سمة للخطاب الإسلامى وحده بل سمة لكل خطاب عقائدى سياسى أو دينى، بل هى سمة للمجتمع المتخلف الذى يسيطر عليه الرأى الواحد، ويحتكر الفكر، وينكر حق الاختلاف.

وليست أهم قضايا الفكر الإسلامى الخلافة وتطبيق الشريعة بل هناك أيضاً مقاومة العدو الصهيونى والاستعمار الامريكى، قضايا الخارج مع قضايا الداخل. أما شعارات الحاكمية فقد وردت إلى الإخوان من المودودى نظراً لظروف الهند وأحوال المسلمين فيها وضرورة المفاصلة وواقعها. عرفها سيد قطب وهو فى السجن بعد قراءته كتاب "المصطلحات الأربعة فى القرآن". الحاكمية والربانية والألوهية والعبودية.

ومن الطبيعى فى الفكر الدينى أن تكون المرجعية دينية إلا أن الدين والواقع شئ واحد، وكذلك الشرع والمصلحة، والآية وسبب النزول، وحق الله وحق الناس.

كما أن التركيز على الأسباب الخارجية للحركات الإسلامية الراديكالية مثل أفغانستان إهدار للسياق، وتنكر للأسباب الداخلية من فقر وقهر وفساد وتحلل وتبعية وميوعة وإحساس عام بالضياع.

وأحياناً يدخل التقرير فى قلب الإخوان، وتحليل المسكوت عنه فى خطابهم والحكم عليه بالصدق أو عدمه. كما ينتقد رئاستهم وإمارتهم وتشتتها مع أنه من

المعروف أن هذا هو حال المجتمعات المهمشة والمجرمة والمستبعدة، عندما تستعصى الإمارة فى الخارج تتشرذم فى الداخل كما كان الحال فى الفرق الإسلامية القديمة. إذا استعصت السلطة فى الخارج تحولت إلى الداخل.

ولا يضع التقرير الحالة الدينية فى ظروف اضطهادهم السياسى وتسليط سيف اللاشرعية عليهم. فالقضية فى الفكر الإسلامى الآن، هو إثبات وجوده وليس الحكم على نوعيته. ولا يصبح الفكر صحيحاً سليما معا فى إلا فى إطار من الشرعية والتفاعل مع الواقع السياسى والتغير والتجديد بناء على تجارب المحاولة والخطأ حتى يحدث التراكم التاريخى الكافى لبلورة الوعى التاريخى الذى هو أساس الوعى السياسى.

لقد حمّل التقرير أوزار المجتمع كلها على الخطاب الإسلامى المعاصر، ودخل معه فى سجال دون وضعه فى سياقه ودون إمكانية للدفاع أو الرد مما يتنافى مع قواعد الحوار المتكافئ والحكم المتعادل.

obeikandl.com

٤ ـ الحالة الدينية فى مصر (٢)

ويقوم التقرير الذى صدر عن الأهرام "الحالة الدينيه فى مصر" منذ عدة أشهر برصد الخطابين الإسلامى والمسيحى فى الأقسام الأربعة الرئيسية التى يتكون منها التقرير: المؤسسات الدينية الرسمية، الحركات الدينية غير الرسمية، العمل الأهلى والتطوعى، العلاقات والتفاعلات، وكأن هناك خطابين وطنيين متمايزين فى مصر من حيث المنطلقات النظرية والتوجهات الرئيسية مما يقضى على وحدة الخطاب السياسى الوطنى، ومما يوحى بأن فى مصر شعبين متجاورين منفصلين لا يجمعهما وطن واحد. وقد يوحى ذلك وهو الأخطر، بقسمة طائفية لشعب مصر، وبمدخل طائفى للقضايا الوطنية. وهو مالا وجود له عند أقباط مصر. هم أقباط ولكن مصريون، مصريون أولا وأقباط ثانيا.

وتتضح هذه القسمة فى بعض الألفاظ والمصطلحات المستعملة مثل: الشعب القبطى، بل يتم عرض الجمعيات الأهلية المسيحية فى مصر ومسارها التاريخى وكأنه صراع بين الكنيسة والدولة أسوة بالتجربة الغربية وبمقاييس الكنيسة وليس بمقاييس النظم السياسية عبر تاريخ مصر الحديث.

فالمرحلة الأولى مرحلة النشأة والتطور فى القرن التاسع عشر وحتى ١٩٢٣ وكأنها مرحلة ليس للدولة فيها نظام سياسى، دولة محمد على حتى دستور ١٩٢٣. والمرحلة الثانية العهد الليبرالى ١٩٢٣ ــ ١٩٥٢ وهو عهد وليس نظاما سياسيا للدولة الوطنية المصرية. والمرحلة الثالثة، مرحلة الدولة التعبوية ١٩٥٢ ــ ١٩٧٠ وهى المرحلة القومية الناصرية الثورة المصرية. ويوحى لفظ التعبوية بمعنى الشمولية وسيادة الدولة على المجتمع مما يقضى على تنظيمات المجتمع المدنى بما فى ذلك استقلال الجمعيات الأهلية. والمرحلة الرابعة مرحلة تزايد الدور الخدمى والتنموى للكنيسة ١٩٧١ ـ ١٩٩٥. وهو مقياس كنسى مثل مقياس المرحلة الأولى،

البيان ١٩٩٧/٦/٢٠

دور النشأة والتطور. فالجمعيات الأهلية فى مقابل الدولة، ومراحلها الأولى والرابعة هى مراحل الدولة. والعلاقة بينهما علاقة عكسية إذا قويت الدولة ضعفت الجمعيات المسيحية كما هو الحال فى الثورة المصرية. وإذا ضعفت الدولة قويت الجمعيات المسيحية كما هو الحال فى السبعينات والثمانينات وعصر الثورة المضادة. ويذكر التفاهم التاريخى بين الكنيسة والدولة وكأنهما قوتان متصارعتان .

ولا يذكر اليهود فى مصر. صحيح أنهم فئة قليلة لايتجاوز عددهم المائتين الآن. وهم مصريون آثروا البقاء فى مصر وعدم الرحيل فى الموجة الأولى جبراً فى ١٩٤٨ أو طرداً فى ١٩٥٦ أو اختياراً بعد ١٩٦٧.

ويغيب التوازن الكمى فى تحليل الخطابين لصالح الخطاب المسيحى. ففى تحليل القسم الأول من التقرير عن المؤسسات الدينية الرسمية يحتل الخطاب الإسلامى ٥٤ ص والخطاب المسيحى ٧٨ ص، والصحافة الإسلامية ٤ ص، والصحافة المسيحية ٨ ص، ويتم تفصيل المعلومات عن الكنائس الارثوذكسية والكاثوليكية والانجيلية (٥٢ ص) أكثر مما يتم تفصيل المعلومات عن الأزهر ووزارة الأوقاف ودار الافتاء. وفى القسم الثالث عن العمل الأهلى والتطوعى يزداد حجم الجمعيات الأهلية المسيحية (٢٦ ص) عن الجمعيات الأهلية الإسلامية (١٤ ص). وفى القسم الرابع عن العلاقات والتفاعلات يزداد القسم الخاص بالأقباط وانتخابات ١٩٩٥ (٢٦ ص) عن القسم الخاص بالتيار الإسلامى (١٦ ص).

وتعقد دراسة خاصة عن نظام الرهبنة والتكريس والتفرغ فى الكنائس (٢٦ ص) أكبر من الدراسة عن الحركة الصوفية كلها (١٤ ص) وكأن الغاية إعطاء أكبر قدر ممكن من المعلومات فى الداخل والخارج عن وضع الأقباط فى مصر وإبرازه فى التقرير وفى الحياة العامة ودون التعرض للنسبة العددية لهم والاختلاف حولها بين ١٠٪ ، ١٥٪ من مجموع شعب مصر. وفى القاموس الأخير الذى يوضح أهم المصطلحات والأسماء والألقاب الواردة فى التقرير تحظى المفردات الإسلامية بمقدار ٣٤ لفظاً، والمسيحية بمقدار ٧٤ لفظاً، ربما بسبب شيوع الأولى أكثر من الثانية.

وبالرغم من أن الانتماء الوطنى للباحثين لا يشوبه أدنى شك لا فى النوايا ولا فى الأهداف إلا أن مساهمة مؤسسة كونراد أدناور فى تمويل التقرير قد يوحى للبعض بأن الغرب مهتم بجمع المعلومات عن الحالة الطائفية فى مصر فى عصر جمع المعلومات الدقيقة هو الأساس الأول فى ترشيد القرار السياسى.

وقد كان الكيل بمكيالين فى طريقة تناول الخطابين الإسلامى والمسيحى. إذ يوجد عرض لأهم الاتجاهات الفكرية عند الأقباط ولا يوجد عرض مماثل عند المسلمين. ويوجد تفصيل لتنظيمات الأقباط فى الخارج ولا يوجد تفصيل مماثل بالنسبة للمسلمين. وتُعرض شخصية القمص سمعان الكارسيمية ولا يوجد عرض مماثل للقيادات الإسلامية الوطنية والاجتماعية مثل حافظ سلامة زعيم المقاومة الشعبية فى السويس فى حرب ١٩٧٣، وكذلك الشيخ الملاوى والشيخ عيد والشيخ مصطفى عاصى من المعارضة السياسية لكامب دافيد والفساد والتبعية لامريكا وباقى السياسات المضادة بعد وفاة عبد الناصر، ومن رموز الحركة الوطنية، وضحايا مذبحة سبتمبر مثل الأنبا شنودة على حد سواء. ويُعرض المؤتمر الإسلامى السابع فى نشاط الكنيسة الكاثوليكية فى مصر ولا تعرض المؤتمرات عن الحوار الإسلامى فى نشاط المؤسسات الإسلامية. ويُعرض إسلاميو الخارج كمعارضة للنظام السياسى فى مصر فى حين تُعرض الكنائس المسيحية كأنها امتداد للوطن فى الخارج مع انها أيضاً تقوم بالمعارضة السياسية من أجل السماح لحرية أكثر لمزاولة النشاط المسيحى فى مصر. ويُعرض النشاط المسيحى وكأنه نشاط إجتماعى مثل جمعية جامعى القمامة فى منشية ناصر. أما النشاط الإسلامى فإنه سياسى مناهض للدولة دون ذكر للنشاط الإسلامى الاجتماعى من خلال المساجد والعيادات الطبية ودور المناسبات والدروس الخصوصية وصناديق الزكاة والإعانات فى أوقات الكوارث.

ويوجد نقد للحركة الإسلامية فكراً وتنظيما ولا يوجد نقد مماثل للحركة القبطية، وكأن الأولى شر مطلق والثانية خير مطلق، بالرغم من تغليب القبطية

أحيانا على المصرية عند بعض الأقباط، وانتمائهم للخارج أكثر من انتمائهم للداخل عند بعض المتغربين منهم، مسيحيين ومسلمين على حد سواء.

بهذه الطريقة تم تصوير المجتمع المصرى وكأنه مجتمعان، مجتمع إسلامى ومجتمع قبطى، وأن هناك دينين، الإسلام والمسيحية. والحقيقة أن فى مصر دينا واحدا، وشعبا واحدا، ووطنا واحداً. وتتجلى هذه الوحدة فى الدين الشعبى الذى لا يفرق بين الإسلام والمسيحية. وهو الدين الذى يمارسه الناس فى الحياة اليومية، والقائم على تعظيم الأولياء والقديسين، والتبرك بهم والتوسط من خلالهم لتحقيق الرغبات. وهو يقوم أيضاً على الموالد والزيارات، لافرق فى ذلك بين زيارة مارى تيريزا فى شبرا والسيدة زينب فى حى السيدة، بين زيارة مارى جرجس فى مصر القديمة وزيارة الحسين فى حى الحسين. ولا فرق بين تقديم النذور والبخور والعطور وإضاءة الشموع وإقامة الموائد وإطعام الفقراء ومساعدة المحتاجين.

هناك دين واحد يقوم على الإيمان بالله والقضاء والقدر والمكتوب والرزق واليوم الآخر والحساب والعقاب وباحترام الموتى وزيارة القبور، لافرق فى ذلك بين مسلمين ومسيحيين فى الممارسات الشعبية.

وربما يمتد ذلك إلى مصر القديمة. وهذا ما يفسر اختيار صورة الغلاف، فلاح مصرى قديم توفى وهو ساجد يصلى لله. فالدين فى مصر دين واحد، دين التوحيد كعقيدة والعدل كشريعة. تختلف أشكاله وصوره عبر العصور منذ دين مصر القديم وعبر اليهودية والمسيحية وحتى الإسلام. فالدين فى مصر له بيئة اجتماعية واحدة، وظروف تاريخية واحدة. وله جوهر واحد، التوحيد والعمل الصالح.

والحقيقة أن هذه الوحدة فى الخطاب السياسى الوطنى تظهر فى القسم الرابع من التقرير عن العلاقات والتفاعلات بين المسلمين والأقباط فى مصر باعتبارهم مواطنين يشاركون فى الحياة السياسية وكما يبدو ذلك من تحليل الخطاب السياسى.

ولكن يظل السؤال: هل الانتخابات السياسية هى المؤشر الرئيسى للتفاعل بين المسلمين والأقباط أم المشاركة فى الحياة اليومية فى الأفراح والأحزان فى المنزل ومكان العمل؟ إن الانتخابات عادة ما تكون مزيفة لا يشارك فيها الا صاحب غنم أو منصب أو رياسة. وضعف المشاركة فيها ليس ظاهرة اسلامية أو قبطية بل هى ظاهرة سياسية نظراً لفقدان أهميتها منذ الثورة المصرية وحتى الآن. فالنتائج معروفة سلفا على مستوى رئاسة الدولة، وسيطرة الحزب الحاكم على أغلب المقاعد حتى أصبحت نسبة ٩٩,٩٪ سخرية فى أفواه الناس.

وتصوير الانتخابات على أنها انتخابات بين المسلمين والأقباط منافسة على الحكم قد يحوّل الظاهرة الوطنية إلى ظاهرة طائفية. فالانتخابات فى مصر انتخابات سياسية وليست طائفية وإلا كانت مصر مثل لبنان. والتعامل مع الأصوات القبطية مثل التعامل مع أية كتلة سياسية لجذب أصواتها على مستوى الطبقة أو المهنة أو الحى أو المدينة أو المحافظة أو الأسرة أو النسب. بل لقد اقترح الحل النسبى لتمثيل الأقباط وكأن الانتحابات قد تمت على أساس طائفى، تطغى فيه الأكثرية الإسلامية على حقوق الأقلية القبطية. وإن ضم بعض أعضاء مجلس الشورى الأقباط بالتعيين حل لمشكلة سياسية، التمثيل، على نحو طائفى مثل حل تمثيل المرأة بنساء أو العمال والفلاحين بنسبة ٥٠٪ منهم فى المجالس النيابية. ثم جاءت النتيجة مجرد رصد لأسماء المرشحين الأقباط دون بيان التفاعل السياسى والحركة السياسية، مراعاة للظروف الدولية دون المحلية.

ومع ذلك تظهر وحدة الخطاب السياسى بين المسلمين والأقباط تجاه الموضوعات السياسية وتقسيمها فى مجموعات خمس تعتبر هى المؤشر على الحياة الوطنية فى مصر. أولاً: القدس، إسرائيل، التطبيع، الموقف العربى، الموقف من أمريكا، الموقف من الفاتيكان، فتوى الاستشهاد. ثانياً: التطرف، والعنف، الارهاب،

الجماعات، الأصولية، الجهاد، والفتنة، تكفير المجتمع، حقوق الإنسان. ثالثا: الدين والسياسة، الإسلام السياسى، تطبيق الشريعة الإسلامية الحكومة الدينية / الإسلامية، العلمانية، علاقة الحاكم بالمحكوم، المعارضة، حق الاختلاف مع الآخر. رابعاً: الوحدة الوطنية، حوار الأديان، الحوار مع الغرب، أساس العلاقات الدولية. خامسا: فتاوى البنوك، الفن، الختان، وثيقة الزواج، نقل الأعضاء، تنظيم الأسرة، الجهاد فى فلسطين.

وقد ظهرت وحدة الموقف الوطنى فى تحليل الخطابين الإسلامى والمسيحى تجاه هذه القضايا الوطنية فى الخارج والداخل. فالاتفاق على بعض منها يتجاوز التمايز بين الإسلاميين والمسيحيين. والخلاف على بعض منها أشد بين المسلمين أنفسهم أو بين المسيحيين أنفسهم أكثر من الخلاف فيها بين المسلمين والأقباط.

تثبت القراءة عبر الخطابات أن التمايز ليس بين المسلمين والأقباط بل بين الحكومة والمعارضة، بين الأغنياء والفقراء، بين أنصار التبعية للغرب ودعاة الاستقلال الوطنى، بين الدين الشعائرى العقائدى المؤسس والدين الشعبى الذى يقوم على رعاية مصالح الناس. فالاتفاق أو الاختلاف بين الناس سياسى وليس دينيا. وبالتالى تسقط شرعية التمايز فى الخطاب السياسى بين الخطاب الإسلامى والخطاب المسيحى.

ولا يكفى تحليل الخطاب السياسى الرسمى الإعلامى كما يبدو فى الصحف بل أيضاً توزيع الكتب الدينية ودور النشر ومعارض الكتاب وتحويل مشروعات البحث العلمى من أجل قياس الحالة الدينية فى مصر.

وقد احتاط التقرير فى النهاية من الاقتراب من مناطق الخطر وهى أولى بالدراسة والتحليل لبواعثها وهى نسبة إشغال الوظائف العامة فى الدولة وبعض

التوترات حول إنشاء الكنائس وحضور المسيحية فى أجهزة الإعلام والتنافس على السيطرة على مقاليد السلطة فى المؤسسات العامة، وكأن كل شئ على مايرام.

يحتاج التقرير فى الحقيقة إلى رؤية أخرى لوحدة للدين فى مصر، والتحليل فى العمق بدلاً من بعض المؤشرات السطحية، وتحليل العملية السياسية فى مصر كظاهرة سياسية من أجل السلطة والمال وليس كظاهرة دينية بالرغم من ظهور الشعارات والرموز الدينية من الحكومة والمعارضة على السواء من أجل جلب الأصوات واستمالة العواطف الدينية للجماهير، وهذا أيضاً أحد جوانب الحياة الدينية فى مصر.

obeikandl.com

٥ ـ الحالة الدينية فى مصر(٣)

بالرغم من استقلالية مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية النسبية داخل مؤسسة عريقة مثل "الأهرام"، وبالرغم من تمتع الباحثين بقدر كبير من الشجاعة الأدبية والرؤية السياسية والقدرة على تنوع أساليب التعبير فى المواقف الصعبة، وبالرغم من الهامش الكبير فى حرية التعبير فى مصر إلا أن تقرير "الحالة الدينية فى مصر" أتى تقريراً حكوميا أمنيا يعبر عن رؤية الدولة فى الموضوع أكثر مما يعبر عن الآراء الصريحة للحركة الإسلامية فى مصر وأيضاً لرأى الأقباط فى مصر بعيداً عن الخطاب الرسمى. وحديث اللسان شئ وحديث القلب شئ آخر. وهو نوع من ازدواجية الخطاب بين العام والخاص، الخارج والداخل.

فمادة التحليل هى الخطاب الرسمى لمشايخ الأزهر السابقين مثل عبد المجيد سليم، والشيخ تاج، وحسن مأمون، وعبد الحليم محمود والبيصار. وخطابهم هو الخطاب الدينى الرسمى الموجه ضد أعداء النظام، الإخوان والشيوعيين، على التبادل أو فى آن واحد لإضعاف جناحى المعارضة الرئيسيين فى الدولة من أجل تقوية القلب، السلطة المركزية، دولة الجيش والشرطة، دولة السلطة التنفيذية.

ولتغطية التوجهات السياسية غير المباشرة فى الخطاب الدينى الرسمى المباشر امتلأ الخطاب بفتاوى تقليدية لاتمس الحياة العامة. فبدا الخطاب الدينى الرسمى وكأنه فقه الحيض والنفاس مثل ختان البنات أو فقه السلطة مثل رفضهم لأساليب الدعوة فى الحركة الإسلامية والتأكيد على الدور الرقابى للأزهر.

ويختلف المشايخ فيما بينهم كمظهر من مظاهر التعددية الشكلية فى الخطاب الرسمى حول موضوعات لا تمس الحياة العامة. وهو خلاف يكشف عن التسابق نحو السلطة مثل الخلاف بين رئيس جامعة الأزهر ورئيس مجمع البحوث الإسلامية ووزير الأوقاف وبين شيخ الأزهر واتهامه بتعطيل انعقاد مجمع البحوث

البيان ١٩٩٧/١/٢٠.

الإسلامية والسماح بتدخل السلطة السياسية فى المؤسسة الدينية بعيداً عن معترك الخلاف السياسى والاجتماعى بين المشايخ فيما بينهم أو بين المؤسسة الدينية والمؤسسة السياسية.

ويبدو الطابع الحكومى للتقرير فى تحليل الخطاب الدينى الإسلامى كما تمثله جماعة الإخوان المسلمين. ويكاد ينتهى التحليل بعريضة اتهام تعبر عن وجهة نظر الدولة بالرغم من الظروف الاجتماعية الجديدة التى فرضت نفسها على الجماعة وجعلتها تغير فى شكلها التنظيمى، وتسرع فى الأخذ بالتعددية السياسية والتحول الديموقراطى فى المجتمع، وتعبر عن الثقة بالنفس نظراً لمرور ما يزيد على سبعين عاما منذ نشأة الجماعة، وصعود جيل جديد، جيل الوسط والشباب، ورغبته فى القيام بدور مؤثر فى حياة الجماعة وتحديد رؤيتها وإعادة تنظيمها بما يتفق والظروف السياسية الراهنة.

فالجماعة تتسم بالمركزية الشديدة، والغموض فى أفكارها وعمومياتها وشموليتها وشعاراتها مثل "الإسلام هو الحل"، "الإسلام هو البديل"، "الحاكمية لله"، "تطبيق الشريعة الإسلامية". والحقيقة أن هذه الشعارات إنما تمثل آليات للحشد السياسى للجماهير وبلورة وعيهم من أجل تجنيدهم للمعارضة السياسية كما تفعل كل أحزاب المعارضة. فالإسلام هو الحل يعبر عن تفاقم الأزمة الاجتماعية يوما عن يوم وعدم القدرة على الخروج من عنق الزجاجة كما يتم الوعد بذلك بين الحين والآخر. والإسلام هو البديل تعنى السأم من التجارب السياسية المعاصرة، الليبرالية والاشتراكية والرأسمالية بعد أن دار الزمن عليها جميعاً بالخسران والبوار. والحاكمية لله تعنى الملل من أحكام البشر التى تتغير وفقا لأمزجة الحكام ومصالح الطبقات وصراعات القوى فى العالم. وتطبيق الشريعة الإسلامية تعبر عن ضيق الناس بالقوانين الوضعية المدنية وعذابهم فى الحياة اليومية وهم يتعاملون مع أجهزة الدولة واستعمال الرشوة لقضاء الحاجات. فالقوانين لتعطيل المصالح وليست لتحقيقها.

كما يتسم خطاب الجماعة بالازدواجية بين الدينى والسياسى، بين العام والخاص، بين النظر والعمل. وهى ازدواجية عامة فى الفكر العربى المعاصر تعم كل الاتجاهات الفكرية والتيارات السياسية ولا يتفرد بها الإخوان. وتنتج عن طبيعة العمل السياسى الذى يوازن بين المبدأ والواقع مما لا يخلو من المناورة وتغيير المواقف فى الممارسات السياسية.

ومعظم التيارات الفكرية والايديولوجية السياسية مبدئية شعارية "الحق فوق القوة، والأمة فوق الحكومة "لليبراليين، "الحرية والاشتراكية والوحدة" للقوميين، "يا عمال العالم اتحدوا" للماركسيين. ثم بعد ذلك تأتى التفصيلات الجزئية فى التطبيق والممارسات السياسية. وهكذا أيضاً الإسلام فى مبادئه العامة فى الاجتماع والاقتصاد والسياسة. ودور الاجتهاد هو استنباط الأحكام الجزئية المتغيرة فى كل عصر من هذه المبادئ العامة.

ومن الطبيعى أن تحدث أجنحة وانشقاقات داخل كل جماعة نظرا للخلاف فى الرأى. والقضية هى كيفية مواجهة هذا الانشقاق، بالقطيعة أم بالحوار، بالتكفير المتبادل أم بالتفاهم والاتفاق. وهو ما يحدث فى كل تنظيم سياسى وتيار فكرى.

وبالرغم من إدانة الإخوان العنف الذى تمارسه جماعات الغضب والرفض إلا أن الدولة تتهمهم بأنهم لا فرق بينهم وبين هذه الجماعات الرافضة، الكل سواء بسواء، وتضع الجميع فى سلة واحدة. بل إن الاخوان هم التنظيم الشرعى والفكرى والقيادى الذى يعطى الغطاء والسند القانونى لممارسات العنف. وفى نفس الوقت تتهم جماعات الرفض الحركة الأم بممالأة النظام السياسى ومهادنته وبالتالى تكفيرهم أسوة بباقى المجتمع. فأصبح الاخوان محاصرين بين اتهام الدولة لهم بأنهم مظلة العنف وتكفير جماعات الرفض لهم بأنهم أتباع النظام.

ويفصل التقرير الحوادث الأمنية الناتجة عن ممارسات العنف. ويرصدها شهراً بشهرا، وعاما بعد عام وكأنه تقرير عن حالة الأمن فى مصر. ويعطى خريطة عنف الجماعات الإسلامية الراديكالية فى خمس عشرة صفحة تفصل تاريخ

وقوع الحوادث باليوم والشهر وأنواع الضحايا من الشرطة والجماعات والمواطنين، قتلى ومصابين، والمحافظات التى ينتسبون إليها. وهى المعلومات التى تذكرها الصحف اليومية بناء على تقارير الشرطة أو المستشفيات أو أجهزة الإعلام.

وعلى هذا النحو يذكر التقرير كل عيوب الجماعات الإسلامية من وجهة نظر الدولة. ولا يكاد يذكر لها ميزة واحدة فى قدرتها على تجنيد الجماهير، وحشد الناس، وتنظيم المظاهرات دفاعا عن البوسنة والهرسك والحرم الأقصى وفلسطين، وتحويلها المساجد الأهلية إلى مركز للخدمات الاجتماعية والصحية والتعليمية. كما لايذكر جهادها فى أفغانستان، والشيشان والبوسنة وفلسطين وجنوب لبنان.

ولا يكاد يذكر شئ عن الظروف النفسية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية للشباب والتى تجعلهم ينخرطون بسهولة فى جماعات الرفض ويستجيبون لها مثل: البطالة والفقر والجهل، وفتاوى المشايخ بتكفير العلمانيين بل واستحلال دمائهم، والضياع والانحلال كما يبدو فى أجهزة الإعلام خاصة التليفزيون وفتيات الإعلانات، والتبعية للخارج والاعتراف بالصهيونية والفساد والطغيان السياسى وتزوير الانتخابات. وهى كلها أوضاع فعلية تحرك قوى المعارضة السياسية، والحركة الإسلامية جزء منها تستعمل الإسلام كأداة للاحتجاج والرفض كما يستعمل الماركسيون الاشتراكية، والليبراليون الحرية، والقوميون الناصرية.

ولا تكاد تذكر عيوب الدولة، وكأن الدولة على حق طول الوقت والحركة الإسلامية على خطأ طول الوقت. وهو نفس الخطاب الإسلامى معكوسا الذى يعتقد أن الحركة الإسلامية على حق طول الوقت وأن الدولة على خطأ طول الوقت. كلاهما خطابان مطلقان يتصارعان على شئ واحد هو السلطة السياسية. والسلطة السياسية بطبيعتها تجميعية، تحيل الخطابات السياسية النسبية كلها إلى خطاب سياسى جماعى ائتلافى كما يحدث كثيراً فى الجبهات الوطنية والائتلافات الحزبية فى مراحل الانقاذ أو الخلاص الوطنى.

لا يكاد يذكر التقرير استحالة القضاء على الحركات الفكرية والتيارات السياسية عن طريق أجهزة الأمن وحدها، الشرطة والجيش. وتشهد على ذلك الأحوال في الجزائر. ولا يكاد يذكر التقرير عن رفض أجنحة أمنية في الدولة قد تكون هي المتسترة على الفساد السياسي والاقتصادي الحوار مع المعارضة السياسية إسلامية أو ناصرية أو ليبرالية، وهي الأجنحة الرئيسية الثلاثة للمعارضة السياسية في مصر. وإذا ما حاول أحد وزراء الداخلية الحوار من أجل الوصول إلى تفاهم مشترك، إيقاف العنف في مقابل الإفراج عن المعتقلين غير المدانين في حوادث العنف تتم إقالته.

ولا يكاد يذكر التقرير رفض أي وجود شرعي للحركة الإسلامية أسوة بالمعارضة السياسية الوفدية والناصرية. فلم تجد الحركة الإسلامية إلا استعمال أسلوب التخفي وراء الأحزاب السياسية الضعيفة إلى أحزاب ذات توجه إسلامي قوي. وهو ما حدث في النقابات والاتحادات والنوادي والجمعيات عندما وصلت إلى مجالس إدارتها الحركة الإسلامية نظراً لضعفها وتفرقها وتشتتها.

ولا يكاد يذكر التقرير الفساد السياسي في الدولة، وتزوير الانتخابات العامة أو على مستوى المحليات، واستيلاء الحزب الحاكم على كل المقاعد تقريباً في المجالس النيابية، والسماح فقط لأحزاب المعارضة المستأنسة بأقل القليل استيفاء للشكل الديموقراطي، مما يجعل النظام السياسي أحادي الطرف، يقف على ساق واحدة، وينظر إلى العالم بعين واحدة، ويتنفس برئة واحدة. وهو ما يعارض روح الديموقراطية القائمة على التعددية، واستمرارا لنظام الحزب والدولة الشمولية وإن تعددت الواجهات، واختلفت الأسماء.

ولا يكاد يذكر التقرير تغلغل الحركة الإسلامية في أجهزة الدولة بل وفي أجهزة الإعلام. فلا يتحدث فيها إلا المشايخ التقليديون، فقهاء السلطان وفقهاء الحيض والنفاس، مما يساعد على غضب الجماعات وتكفيرها للدولة ودعاتها في الإعلام وفي المساجد الحكومية. ويقيمون إعلامهم الخاص، الزي والذقن والتكبير،

ويؤسسون مساجدهم الأهلية دون مساجد الضرار. فما يقال فى حديث الروح كل يوم فى التليفزيون قبل نشرة الأخبار تخدير للناس، حديث عن الايمان والصبر والعبادة والتقوى والمعاد وبعده! مذابح المسلمين فى البوسنة والهرسك، وضرب الفلسطينيين وتعذيبهم فى الأراضى المحتلة.

ويحيى التقرير الدولة المركزية وقدرتها على التصدى للحركات الإسلامية عن طريق أجهزة الأمن. يحيى التقرير "مكانة الدولة المركزية ومؤسساتها ورموزها فى الوعى الجماعى للسواد الأعظم من المصريين لاعتبارات تاريخية وثقافيه وقيمية عديدة. ومن ناحية أخرى فإن أجهزة القوة والعنف المشروعة فى الدولة المصرية تتصف بالتماسك البنائى والفاعلية، وقادرة على التكيف والتوازن الدينامى مع هذا النمط من الجماعات" (ص١٦٢). كما يحيى "سياسة الضربات الأمنية الشديدة والمكثفة، واتباع قاعدة التوسع فى الاشتباه على المناطق التى تتركز فيها عمليات العنف التى أدت إلى التحجيم النسبى لهذه العمليات" (ص١٩٢).

ويقترح التقرير حل تنشيط الدور السياسى للجمعيات الأهلية والمنظمات غير الحكومية لملء الفراغ السياسى والثقافى فى البلاد. وهو أيضاً حل حكومى ينبع من جهاز الدولة ولا تسمح به الدولة نفسها نظرا لتحريم عمل هذه الجمعيات فى الأنشطة السياسية والدينية طبقا لقانون إنشائها، وخضوعها المستمر لوزارة الشئون الاجتماعية، والتهديد بحلها فى حالة أية مخالفات للقانون. وما أكثر الحجج التى لدى الذئب لأكل الحمل حتى لو كانت المياه تجرى من أعلى حيث يشرب الذئب إلى أسفل حيث يشرب الحمل.

قد يكون أحد الأسباب الرئيسية لهذا الطابع الحكومى الأمنى للتقرير أن الباحثين الذين كتبوا الأجزاء الإسلامية فيه من خارج الحركة الإسلامية وأحيانا من المعادين لها. بينما كتب الجزء المسيحى فيه باحثون من داخل الحركة القبطية والمنتمون لها. فوقع التقرير فى ثنائية الخير والشر، الحق والباطل، الصواب والخطأ، وهو ما يميز خطاب الدولة وخطاب المعارضة على حد سواء.

٦ ـ الأمثال العامية المصرية والثقافة الوطنية

أمثال العرب جزء من أدبهم ومكوّن لوجدانهم القومى. أعاد الرسول فى أحاديثه النبوية بناء بعض منها مثل "انصر أخاك ظالما أو مظلوما" وهو مثل عربى قديم أعاد الرسول بناءه بإضافة أن نصر الظالم بمنعه عن الظلم.

ومازالت بعض الأمثال العربية حية فى الذاكرة القومية، يستشهد بها الناس فى حياتهم اليومية وهى مازالت فى حاجة إلى إعادة بناء لحسن فهمها واستعمالها. وذلك مثل كثير من الأمثال العامية التى تتعرض للقضاء والقدر والتواكل والاستكانة وقبول الضيم والفقر والغلب والضنك. وتحتاج إلى إعادة بناء عن طريق تفسيرها وتأويلها بحيث لا تمنع من التغير الاجتماعى، واسترداد الحقوق، ورفع الظلم عن الناس.

والأمثلة على ذلك كثيرة. فإذا قيل "ربنا ريّح العريان من غسيل الصابون" فإن ذلك يعنى قبول القذارة وكأنها نعمة من الله وقبول العرى لأنه لا يحتاج إلى صابون وغسيل مع أن الطهارة والغسل والوضوء والاستحمام من فضائل الشريعة. والأفضل البحث عن الصابون والماء للتطهر والنظافة للجسد والثوب.

وإن قيل أيضاً "ربنا ما سوّانا إلا بالموت" فإن ذلك معنى أن الناس سواء فى الموت. فلكل أجل كتاب. وكل الناس ميتون. ولكنه قد يعنى أيضاً قبول عدم المساواة فى الحياة، والتفاوت الشديد فى الأرزاق والدخول مما يستوجب طبقا للشريعة تحقيق العدالة الاجتماعية، حق الفقراء فى أموال الأغنياء. فالمساواة فى الموت حق ولكن اللامساواة فى الرزق واقع. لذلك شرعت الزكاة وغيرها من أجل تحقيق المساواة أيضاً فى المجتمع.

البيان ١٩٩٦/١٢/٣٠

obeikandi.com

فإن قيل أيضاً "ربنا ما يقطع بك يا متعوس، يروح البرد ويجى الناموس" وكأن المتعوس متعوس لا مفر من تعاسته إما بالبرد أو بالناموس مرة أخرى، وأن الله كتب على البعض التعاسة والضنك والفقر والحرمان والعوز. فيقبل الإنسان وضعه وغلبه، ولا يسترد حقه، وكأن الحق الضائع عزيز المنال مما يسبب رضوخ الشعوب واستسلامها وتنازلها عن حقوقها.

ومثال ذلك أيضاً "المغلوب مغلوب، وفى الآخرة يضرب طوب". فالضنك ليس فقط فى الدنيا بل يمتد أيضاً إلى الآخرة. والمغلوب مغلوب فى الدارين. مع أن المغلوب فى الدنيا منصور فى الآخرة كما تقتضى بذلك العقائد. وكأن الهدف من المثل هو القضاء على كل أمل فى الدنيا وفى الآخرة كذلك. وفى الإسلام لا تضيع الحقوق. وإن ضاعت فى الدنيا فإنها تسترد فى الآخرة ويقتص من الظالم.

وهناك أمثال أخرى تدعو إلى قبول الفقر مثل "المفلّس فى أمان الله" لأن الغنى يبعث على الخوف على الثروة وعدم الاطمئنان عليها. وهو ما يعارض الشريعة التى تدعو إلى محاربة الفقر. فالصنعة فى اليد أمان من الفقر. وقد قال عمر "والله لو كان الفقر رجلا لقتلته". واليد العليا خير من اليد السفلى.

كذلك تُروى بعض الأمثال العامية عن الصبر دون ربطه بالفعل مثل "من عامود إلى عامود يأتى الله بالفرج القريب" وكأن مهمة الإنسان هو مجرد التنقل من حائط إلى حائط ومن رصيف إلى رصيف حتى يأتيه الله بالفرج القريب دون سعى أوكد أو كفاح.

وهناك أمثال عامية أخرى يمكن أن تفهم على نحو إيجابى أو على نحو سلبى مثل "الرب واحد، والعمر واحد". فقد يُفهم المثل بطريقة تؤدى إلى التهلكة وعدم التبصر بعواقب الأمور بدعوى أن الرب واحد والعمر واحد، دون تمييز بين المواضع ودون حساب احتمالات النجاة والهلاك. وقد يُفهم على نحو إيجابى بمعنى الإقدام على الصعاب وعدم الخوف أو التخوف أو المهابة من مواجهة المخاطر كما

obeikandi.com

فعل الأفغانى فى إعادة تفسيره للقضاء والقدر لا على أنه استسلام للمقادير ولكن بمعنى الاقدام على الخطوب، ومواجهة الصعاب، طبقا لقول الشاعر:

فإذا كان من الموت بد .. فمن العجز أن تكون جبانا

ومثال ذلك أيضاً "رب هنا، رب هناك". قد يُفهم على نحو سلبى، يؤدى إلى عدم التمييز بين مواطن الخطر وعدم الفطنة وأخذ الحذر. وقد يُفهم على نحو إيجابى بمعنى الإقدام والسعى والكدح فى الأرض، وكلها أرض الله، ميدانا للجهاد. إن ضاقت هنا اتسعت هناك.

كما قد يُفهم المثل العامى "ربك رب العطا، يدّى البرد على قد الغطا" على نحو سلبى، أن الله يرضى بفقر العبد وعوزه وضنكه وألا يصيبه من الشرور إلا قدر ما يتحمل. وقد يُفهم على نحو إيجابى، أن كل ضرر يمكن الاحتراس منه بما عند الإنسان من وسائل لدفعه، فلا يكلف الله نفسا إلا وسعها. ومن مبادئ الشريعة عدم جواز تكليف مالا يطاق. والله لا يظلم الناس. ولا يصيبهم ضرر إلا استطاعوا الحذر منه واحتواءه.

وبالرغم من وجود بعض الأمثال العامية التى تنكر أفعال العباد وتدعو إلى الاتكال على الله أو على الرسول مثل "ما قالها إلا النبى" وكأن الإنسان يعلن عجزه عن الفعل ويسلم مقاديره لله أو للرسول هناك أمثال عامية أخرى تجمع بين الفعلين. فعلى الإنسان أن يسعى وليس عليه النجاح. عليه أن يأخذ بالأسباب والله محقق النتائج.

مثال ذلك "خذ من عبد الله، واتكل على الله" أى أنه لا بد من الفعل الإنسانى أولاً، الطبيب للشفاء، والسلاح للنصر، والعلم للكد والسعى. فالتوكل على الله مشروط بالمبادرة الإنسانية كما يقال فى مثل شعبى آخر "اسعَ ياعبد وأنا أعينك".

وكثير من الأمثال عن الصبر تفيد نفس المعنى وهو أن الصبر فعل إنسانى يأتى بعده الفرج. والحزن، والغيرة، والأهواء كلها واقع إنسانى والإنسان يصبر

عليها حتى يستطيع السيطرة على نفسه وتجاوز المحنة. وذلك مثل "الغيرة مرة، والصبر على الله". فالمثل الشعبى يقر بالغيرة كأمر واقع، ويدعو إلى الصبر عليها حتى تنفرج الأزمة. فالأهواء وانفعالات النفس بطبيعتها وقتية هوائية عابرة، وليس لها جذور فى الوجود الإنسانى فى الأعماق.

مثال ذلك أيضاً "إن صبرتم نلتم وأمر الله نافذ. وإن ما صبرتم قبرتم وأمر الله نافذ". فأمر الله نافذ فى كلتا الحالتين، الصبر أو نفاد الصبر. ولكن بالصبر يتم نيل المراد، وبنفاد الصبر قد ينفجر الإنسان غيظاً، ويموت هما وكمداً.

وإذا كانت حكمة الشعوب أميل إلى الاستكانة والرضا والتسليم عبر التاريخ، فالثبات هو الدائم والتغير هو الطارئ، الواقع هو القاعدة والتغير هو الاستثناء إلا أن هناك بعض الأمثال العامية التى تعبر عن هذه اللحظات التى يثور فيها الإنسان على واقعه ولا يستسلم له. إذ يدرك أن الإحالة إلى المقادير عجز عن الفعل "العجز فى التدبير يحيل على المقادير". والقادر على الفعل لا يلجأ إلى تبرير عجزه بالمكتوب والمقدّر.

وهناك أمثال عامية أخرى لاتربط بين العلة والمعلول، والمقدمات والنتائج والفعل الإنسانى وآثاره. فقد يتعب الإنسان ولا يصيب شيئاً فيذهب التعب سدى، مثل "اللى زمّرناه راح لله". وهو مضاد لموقف الشرع الذى يطالب بالأخذ بالأسباب، وبإعمار الأرض.

وقد يفيد المثل العامى المعنى العكسى، أن الرزق يأتى دون سعى وكد. فالنتائج غير مشروطة بالمقدمات وذلك مثل "أهى الأرض سودة، والطاعم الله". فالأرض سوداء لم يزرعها أحد بعد ولم تتحول إلى أرض خضراء بفعل البذر والسقى والحرث ولكن الله هو الرزاق، مما قد يؤدى إلى إهمال الفعل انتظاراً للرزق.

وقد يخفى الإنسان الرزق الذى جلبه بجهده وعرقه انتظاراً للرزق من الله زيادة فى الطمع وإيهاما للناس مثل "المضلّف (وهو الإنسان الشبعان) يقول الرزق على الله". وقد يضرب المثل بالطير مثل "الغراب الدافن (الذى أخفى رزقه من سعيه) يقول النصيب على الله".

وتفيد بعض الأمثال عدم التدخل فى الإرادة الإلهية وعدم توسيع ما رزقه الله الإنسان، فالرضا بالقليل رغبة فى الكثير قد يؤدى إلى ضياع القليل والكثير معا مثل "رزق نازل من السماء من خرم إبره جه يوسّعه سده"، وكأن الإنسان عليه فقط أن يقبل ما يُعطى له دون العمل من أجل الزيادة والكثرة، وكأن الحد الأدنى، حد الكفاف هو أقصى ما يطمح إليه العبد.

وكذلك أيضاً "قال يارب سلّم وغنّم قال يارب سلّم وبس" وكأن طموح الإنسان محدود باتقاء الغرم دون الغنم، وكأن تفادى الأضرار تكفى عن جلب المنافع. وهو ما يجعل الشعوب ترضى بالقليل وتترك لغيرها الكثير. يكفى عدم وقوع المصائب والسلامة منها دون طلب الحقوق والارزاق.

وتدعو بعض الأمثال العامية إلى الاكتفاء بالرزق اليومى دون الإعداد للغد، الطعام يوما بيوم، والعيش ساعة بساعة، وترك هم المستقبل. وذلك مثل "رزق يوم بيوم، والنصيب على الله". وتؤثّر مثل هذه الأمثال فى الوجدان العربى تتركه يهمل الاعداد للمستقبل والتخطيط له. فلا يفكر فى المصائب إلا بعد أن تقع، ولا يعد للكوارث إلا بعد أن تحل. وترك الغرب يخطط لعشرات السنين مستقبلاً فى حالة نفاد الطاقة، وجفاف الأرض، وشح المياه، وتلوث البيئة. ونشأ علم بأكمله هو علم المستقبليات، ورصد سيناريوهات المستقبل، والاعداد لأفضلها، متحكماً فى مسار التاريخ، وثروات الأمم.

ومع ذلك هناك أمثال قليلة تدعو إلى الحركة والفعل مثل "الرزق يحب الخفيّة"، وأن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة دون سعى الإنسان. وهو ما يتفق مع الشرع ودعوته إلى الكد والسعى والعمل والكفاح والجهاد. ولكن الغالب على

الأمثال هو النـوع الأول الـذى يدعـو إلى القعـود والاتكـال منتظـراً الـرزق والفرج من الله.

إن تجربة العرب الحديثـة بـدأت بالتنميـة للمـوارد وبنـاء الدولـة الحديثـة منذ محمد على حتى عبد النـاصر، التصنيـع، والزراعـة، والإسـكان، وإنشـاء الأسـاطيل للتجارة. وكل ما استطاعت الثقافة أن تعطيـه هـو التوفيـق بيـن القديـم والجديـد، بيـن الموروث والوافد، بين ثقافة الأنا وثقافة الآخر، بين علوم الدين وعلوم الدنيا إما عـن طريق الانتقاء من كل من الثقافتين العناصر المتشابهة من أجل توحيد الثقافة أو عـن طريق قراءة القديم قراءة عصرية أو عن طريق قراءة الجديد قـراءة قديمـة. وكـانت النتيجة أن ظلت الثقافة القديمة دون تطوير من الداخل ودون إعـادة بنـاء كـى تكـون دعامة النهضة الحديثة.

لذلك قد يكون الأدوم والأثبت والأصوب الاعداد لنهضة قادمة لا تكبو، وتقـدم لاينتكس عن طريق إعادة بناء الثقافة القديمة سواء العلوم الدينيـة أو الامثـال العاميـة من أجل تكوين ثقافة وطنية تقوم بدور الايديولوجية السياسية الشعبية، وتدفـع النـاس إلى المشاركة السياسية والعمل القومى.

وتلك رسالة مراكز البحث الاجتماعى والفنون الشعبية والعلـوم السياسـية مـن أجل صياغة ثقافة وطنية تكون دعامة الثقافة السياسية. تنبع من تراث الأمة وتواجـه تحديات العصر.

وهى رسالة أجهزة الإعلام خاصة الـبرامج الدينيـة والمسلسـلات التليفزيونيـة التى يشاهدها الملايين والتمثيليـات الإذاعيـة. وهـى موضوعـات للأعمـال الدراميـة والأفلام السينمائية من أجل أن يصبح الفن أداة للتوعية الثقافية.

وهو دور أئمة المساجد فى خطبهم ودروسهم، والأحزاب السياسية فى منتدياتهم، والجمعيات الأدبية والثقافية فى نشاطها ومجلاتها. وهى أيضاً مهمة التربية الوطنية فى المدارس ودروس الأدب الشعبى حتى تصبح إعادة بناء الثقافة الوطنية حملة قومية يشارك فيها الجميع.

لقد تعددت الأولويات فى الممارسات السياسية بين الأولوية للاقتصاد والأولوية للسياسة. ولكن بالنسبة للمجتمعات التراثية مثل المجتمع العربى الأولوية لاعادة بناء التراث القديم من أجل صياغة ثقافة وطنية تصبح دعامة لأيديولوجية عربية. فالأولية للثقافة فى مجتمع دوّن تاريخه فى شعره. وورثه الوحى فى "إعجاز القرآن".

٧ ـ اليهود فى الأمثال العامية المصرية

فى الوقت الذى تتعثر فيه مباحثات السلام بعد صعود اليمين الإسرائيلى إلى الحكم، وفى الوقت الذى يدرك فيه العرب حدود العملية السلمية ومراوغات إسرائيل وعدم وفائها باتفاقيات السلام ورفضها لها يتماسك العرب من جديد، وتظهر وحدتهم. ومن تقدم أكثر مما ينبغى يتراجع. ومن هرول توقف.

وقد يعتمد البعض على القرآن الكريم والحديث الشريف من أجل التحذير من الغدر والخيانة، وتحريم موالاة بنى إسرائيل الصريحة، وأنه لا يجوز شرعاً الصلح مع بنى إسرائيل لما عرفوا به من نفاق وعدوان. فالتراث الدينى تراث شعبى مؤثر فى سلوك الناس وفى رؤاهم للعالم للتحذير من التعامل مع اليهود أو الهجرة إليهم من العمالة العربية.

وقد يعتمد البعض الآخر من أنصار التطبيع والربح والتجارة بصرف النظر عن الشرف والكرامة والحق على آيات قرآنية أخرى بدعوى السلام مثل "وإن جنحوا للسلم فاجنح لها "مع أنهم لا يجنحون للسلم، ويقيمون المستوطنات الجديدة، ويوسعون المستوطنات القديمة، ويهودون القدس، ويستولون على الأراضى الفلسطينية.

أما الأمثال العامية فهى توضح صورة اليهود دون لبس أو اشتباه، صورة واحدة قادرة على أن تقضى على بقايا وهم التطبيع والسلام. والأمثال العامية لاتقل أثراً عن التراث الدينى فى توجيه ثقافات الناس وسلوكهم خاصة فى المجتمعات التراثية التى مازال تراثها يمثل الرافد الرئيسى لثقافتها بل وأيديولوجيتها السياسية الشعبية. تعبر عن خبرة الشعوب. ويجمعها القدماء مثل الأبشيهى والمحدثون مثل أحمد تيمور. ودرسها علماء الاجتماع فى "هتاف الصامتين" وكتابتها على عربات النقل وعربات الطعام المتجولة، لا فرق بين الآيات والأحاديث والأمثال العامية.

البيان ٢٣/١٢/١٩٩٦

obeikandi.com

ففى "الأمثال العامية" لأحمد تيمور الذى جمع ٣١٨٨ مثلاً عامياً مصريا يظهر اليهود فى اثنى عشر مثلاً بمفردهم باستثناء مرة واحدة مع النصارى. وكلها ترسم صورة اليهود المعاصرين، صورة الصهيونى. ويبدو أنها صورة نمطية عبر التاريخ بالرغم من وجود بعض الحركات الاصلاحية التى ترفض هذه الصورة وتسعى إلى تغييرها. ولكن الصهيونية المعاصرة أكدت هذه الصورة النمطية التى عرضتها الأمثال العامية. ويمكن عرضها فى سبع سمات:

أولا، أن اليهودى فقير لأنه يتاجر بما له ويرابى فيه. فهو فقير بالرغم من غناه، بخيل بالرغم من وفرة ماله، مقتّر بالرغم مما يمتلك. لذلك ضرب به المثل فى الإفلاس" أفلس من يهودى نهار السبت". ومع ذلك يظل يبحث فى أوراقه القديمة لعله يجد دينا له عند أحد يطالبه به. يظل يقلب فى الأوراق ويبحث فى الماضى ليجد حجة للمطالبة فى الحاضر كما يفعل اليهود الآن فى البحث فى التاريخ لإيجاد شرعية لإعادة إقامة هيكل سليمان ومقابر الأنبياء وأرض المعاد، "لما يفلّس اليهودى، يدوّر فى دفاتره القديمة". يتصف بالنهم لأنه لا يشبع، وبالطمع لأنه لا يكتفى ويطالب بالمزيد. والفقير فى الدنيا فقير فى الآخرة "زى فقر اليهود، لادنيا ولا آخرة". يحكم المثل العامى على اليهود إذن بالخسران فى الدارين، بداية بالخسران فى الدنيا. ومن لا دنيا له لا آخرة له.

ثانيا، أن اليهودى لا يصدق فى شئ يبلغه لأنه يعرف الحق ويكتمه. يكذب ويحجب الحق عن الناس. "زى ساعى اليهود، مايودّى خبر ولا يجيب خبر". ومن ثم يصعب التعامل معه والاعتماد عليه. الحق له وحده يمنعه عن الناس. يأخذ أكثر مما يعطى، ويتعلّم أكثر مما يُعلّم. يخدمه الناس أكثر مما يخدم الناس.

ثالثا، أن اليهودى لا ضمير له ولا إيمان له ولا قيمة له بالرغم من ادعائه الإيمان وتأسيس دعوته السياسية على الدين. لقد مات موسى بالنسبة له وبالتالى استحل كل القيم، وبدّل الشرائع، وقتل النفس التى حرمها الله فى التوراة. "سيدنا موسى مات، ناشف، طرى، هات". لا يهم الدين فقد انقضى عصر الأنبياء. وبالتالى

استحل اليهودى لنفسه كل شئ من أراضى الغير وممتلكاتهم. وأحلّ لنفسه القتل والغدر والخيانة. لا فرق لديه بين الحلال والحرام. يستولى على كل شئ بصرف النظر عن مصدره، ويأخذ كل شئ بصرف النظر عن حقه.

رابعاً، أن اليهودى أنانى، لا يخدم أحداً، ولا يقدم العون لأحد. "احتاجوا لليهودى، قال اليوم عيدى". يتذرع بالدين وبمراعاة شريعة السبت كى يمتنع عن خدمة الناس. لذلك نقدهم السيد المسيح بأن الإنسان هو سيد السبت وليس السبت سيد الإنسان، وأن اليهودى لو وجد شاته قد وقعت فى حفرة يوم السبت لأنقذها. لذلك يأخذ اليهود كل شعائر الدين كذرائع لتحقيق أهدافهم السياسية، لا فرق فى ذلك بين المتدينين والعلمانيين منهم، بين المدنيين والعسكريين.

خامساً، أن اليهودى يظهر غير ما يبطن، ويبدى غير ما يكتم. يدعى أنه ضحية المحرقة والاضطهاد والابعاد عبر التاريخ وهو أول المعتدين الذى يستعبد غيره، يقتل ويعذب ويطرد ويهدم المنازل، ويحرق بالنابالم، ويكسر الأصابع. يبكى عند حائط المبكى وبيده السيف، والخنجر يضعه فى قلب الفلسطينى. لذلك قيل "زى طُرب اليهود، بياض على قلة رحمة". الظاهر العدل والباطن القسوة. فى الخارج البراءة وفى الداخل الإجرام. وكل قراءة اليهودى للتوراة كذب فى كذب، ولايؤمن بما فيها ولا يطبقها. إنما يأخذها فقط كذريعة لمخالفتها وعصيانها. يقرأ باللسان ويكذب بالقلب. يقرأ بالصوت ويعصى بالفعل. "زى قراية اليهود، تلتينها كدب". فما يقوله اليهود كذبه أكثر من صدقه، وخيانته أكثر من وفائه، وخداعه أكثر من صراحته.

سادسا، لقد مات الإيمان فى قلب اليهودى، وحل فرعون فيه محل موسى، وحلت القوة محل العدل. "اللى تقول عليه موسى تلتقيه فرعون". فسلوك اليهود أقرب إلى فرعون منه إلى موسى، إلى العدوان والقوة منه إلى الرحمة والعدل. ومن لا يرضى بحكم موسى لا يجد إلا حكم فرعون "اللى ما يرضى بحكم موسى يرضى بحكم فرعون". لذلك لم يعد هناك فرق بين الصهيونية والنازية. كلاهما

نزعة عنصرية عدوانية توسعية، بعيدة كل البعد عن رسالة الأنبياء وأقوال الفلاسفة. لذلك لم يعد هناك من يستمع إلى مزامير داود. فقد غاب اليهودى وحل محله الصهيونى النازى. "راح تقرا زبورك على مين ياداود". لم تعد التوراة ولا الزبور ولا حكم سليمان ولا أقوال الأنبياء بذات صدى فى قلوب اليهود.

سابعاً، اليهود والنصارى غرباء عن البلاد، دخلاء عليه، أقرب إلى الأجنبى منهم إلى الوطنى. وليس المقصود هنا النصارى العرب الذين لم يأخذ الإسلام منهم الجزية لأنهم عرب بل النصارى "الخواجات" الآتين من الغرب. وليس المقصود أيضاً هنا بعض اليهود الوطنيين مثل عبد الله بن سلام اليهودى فى عصر الرسول الذى كشف إخفاء اليهود لآية الرجم بل اليهود الغربيون المستعمرون الذين استوطنوا فى البلاد وعاشوا غرباء فيها. يستنزفون ثروات الناس ويستقطبون عمالتهم." لليهود والنصارى، ولا لولاد الحارة". فاليهود والنصارى الغربيون ليسوا من الحارة، بتعبير نجيب محفوظ، بل دخلاء عليها، وليسوا من أهل البلاد الوطنيين بل غرباء عنها.

وبالرغم من أن هذا المثل هو الوحيد الذى يقرن اليهود والنصارى ألا أن صورة النصارى بمفردهم تظهر فى خمسة أمثال أقرب إلى الإيجاب منها إلى السلب. ثلاثة منها عن الكنيسة وولاء النصرانى لها، وصدقه مع النفس فى إيمانه، وهو إيمان قلبى خالص وإن اختلفت المظاهر عنه. "اللى فى القلب فى القلب ياكنيسة" سواء انطبق ذلك على النصرانى تجاه الكنيسة أو على المسلم تجاه الكنيسة. والإيمان اعتقاد داخلى ثابت ودائم، لا يتحول. الصدق مع النفس جوهره بصرف النظر عن أقوال اللسان. "قالوا ياكنيسة اسلمى قالت اللى فى القلب فى القلب". فليس المهم تولية الوجه قبل المشرق والمغرب ولكن الإيمان بالله، والتقوى فى القلب، والصدق مع النفس. وتضم الكنيسة جماعة المؤمنين، يعرف بعضهم بعضا "الكنيسة تعرف أهلها".

كما يشير مثل عامي واحد إلى الزواج النصراني الأبدى الذى لا فراق فيه مهما علت الأصوات وكبر الخلاف واستحالت الحياة بين الزوجين مثل "جوازة نصرانية لا فراق إلا بالخناق".

ويشير مثل واحد إلى الموالاة للنصارى لدرجة التبعية. فينسى من يقوم بذلك الحق فى سبيل الرزق والمصلحة الشخصية. وهو حال بعض العرب مع الغربيين مادامت المصالح قد تشابكت. "اللى ياكل عيش النصرانى يضرب بسيفه". ولاينطبق ذلك على نصارى العرب الذين هم جزء من الوطن، يدافعون عن حريته واستقلاله ضد الدخيل الأجنبى. فالغربى تنكّر للمسيحية وآثر العدوان.

صحيح أن هذه الأمثال العامية جمعت فى مصر. ولكن لها ما يشابهها فى باقى الوطن العربى. وقد تجمع اليهود فى مصر والمغرب وتونس والعراق خاصة. وبتحليل أمثال هذه البلدان العربية تجاه اليهود لا تختلف الصورة بل تتأكد. فالسلوك اليهودى واحد فى الأغلب. وهى نفس الصورة أيضاً فى الغرب والتى صورها شكسبير فى شخصية شيلوك فى "تاجر البندقية".

ولا تعنى هذه الصورة أية معاداة للسامية بل هى تقرير واقع من خلال الثقافة الشعبية كما يحللها علماء الأنثروبولوجيا. إنها حكم واقع وليست حكم قيمة. ومثلها مثل صورة العربى فى الذهن الإسرائيلى أو الغربى. والجماهير تتحرك بناء على هذه الصورة المتبادلة بين الأفراد والشعوب والثقافات. وقد تؤيدها الأعمال والسياسات أو تخالفها. فإذا أيدتها ترسخت الصورة. وإذا خالفتها اهتزت الصورة حتى تتكون صور بديلة عبر التاريخ.

وفى حالة اليهود، تترسخ الصورة التى رسمتها الأمثال العامية المصرية. وتتأكد يوما بعد يوم منذ نشأة الحركة الصهيونية فى أواخر القرن الماضى، وبداية الهجرات اليهودية حتى تأسيس دولة إسرائيل فى ١٩٤٨ وحروبها التوسعية فى ١٩٥٦ وفى ١٩٦٧ وبعد حرب ١٩٧٣ وبداية إسرائيل الكبرى وعودة حلم " من النيل إلى الفرات" بعد صعود اليمين الإسرائيلى إلى السلطة وممارسة سياسات القمع والاستيطان والتوسع سراً وعلانية.

والتاريخ القديم منذ خيبر والطائف والمدينة يؤكد ما أثبته التاريخ الحديث منذ بازل وحتى تأسيس دولة إسرائيل. بل ويتنبؤ بالمستقبل القريب، من البذرة إلى الثمرة، ومن الجذور إلى الأوراق. ولكنها دورة حيوية أيضاً على الأمد البعيد، تنتهى بالجفاف.

لا يعنى ذلك التهوين من أمر اليهود اعتماداً على الصورة الشعبية الكاشفة لهم فى الأمثال العامية. فالتاريخ لا يتحرك بالصورة وإن كانت الصورة أحد العوامل المجندة لقواه. إنما يتحرك التاريخ بالفعل، أفعال الأفراد والجماعات وحركات الشعوب. الصورة بداية اليقظة، والفعل بداية الحركة.

إن العرب قادمون على جولة جديدة فى صراعهم مع الصهيونية كفكر ودولة، كعقيدة ونظام، كحق وقوة. وربما كانت من مآثر السلام إدراك أنه وهم، وأنه لاسلام. لقد أدت الحروب القديمة إلى السلام وربما يؤدى السلام الحديث إلى حروب قادمة.

إنما المطلوب معرفة الإمكانيات، ومن ضمنها الإمكانيات الذهنية والمعنوية. ومنها الاستمرار على القضاء على ما تبقى من الوهم فى تغيير الصهيونية مواقفها من أرض فلسطين وشعبها ووجوده، واتجاهها تجاه العرب تاريخاً وحاجزاً ومستقبلاً. ومنها صورة اليهود، بنى إسرائيل فى القرآن والسنة، وصورتهم فى الأمثال العامية العربية، حماية للشعوب العربية من أوهام التطبيع والمستقبل الزاهر، والتعاون المستمر بين الدول فى المنطقة فى إطار نظم جديدة مثل الشرق أوسطية والمتوسطية. اليهودى يهودى عبر التاريخ وإلا لما كان يهودياً ولما حافظ على وجوده فى الشتات وفى المعاد.

فى ثقافة العرب حماية للعرب من الوهم والتطبيع والسير وراء سراب خادع باسم السلام. وتلك مهمة المثقفين الوطنيين الذين يجعلون من بناء الثقافة الوطنية خير دعامة لحماية الأمة.